الوسطية

الطريق إلى الغد

تأليف

د . عبد الله بن عبد العزيز اليحيى





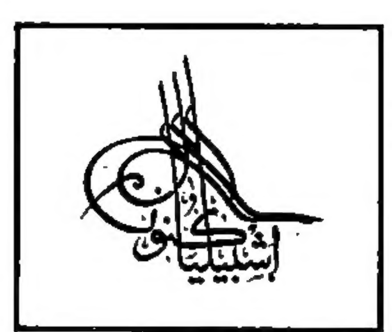
الوَسَطِيَّةُ

الطَّرِيقُ إلى الغَدِ

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اليحيى، عبدالله بن عبدالعزيز
الوسطية الطريق إلى الغد، / عبدالله بن عبدالعزيز اليحيى
الرياض ١٤٢٩هـ.
٢٢٤ صفحة ١٧×٢٤
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٠١-٠٣-٥
١- الوسطية في الإسلام أ- العنوان
ديوي ٢١١ ١٤٢٩/٣٩٦٦

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣٩٦٦هـ
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٠١-٠٣-٥

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧
هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨- ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠
E-mail: eshbelia@hotmail.com

المقدمة

الحمد لله.. وبعد، ، ،

(الوسطية الطريق إلى الغد) خواطر وآراء، مُوَجَّهَةٌ إلى القارئ المسلم في مزرعته، ومصنعه، ووظيفته، أو في مقاعد دراسته... وليس بحثاً للنخبة من المفكرين والعلماء، فيه شروط البحث وقواعده، وفواصله ومراجعه.

الهدف من نشرها مخاطبة عامة المسلمين وإشعارهم بأن الإسلام لا يزال يحافظ على اعتداله وعدله ووسطيته، وأنه بخير وعلى خير وإلى خير، وأنه ينمو ويتمدد، وما يعاني منه من الخارج أو ما يقلقه في الداخل إنما هي إرهاصات بعث جديد؛ لأن التشتت بداية طريق الوحدة، والاختلاف يُحَرِّض على الإئْتِلاَف، والتنوع ظاهرة طبيعية متى أحسنا إدارتها، وحولناها إلى ثمار يانعة مفيدة؛ فالإسلام دين عالمي، لجميع الخلق، وازن بين واجب الاتحاد وحقيقة الاختلاف وترشيد الخلاف، وفعّل منطقه العفو، وحَرَّض على الوعي الحضاري والإدراك الحضاري والعمل الحضاري، وعالج طغيان الداخل وظلم الخارج، فوسطيته ليست مائعة مبتدعة، وليدة الهوى لتواكب العصر بُرْهَةً ثم تختفي، ويتوالد منها مصطلحات جديدة، ومفاهيم غربية معاصرة تخالف المحكم من القرآن الكريم، والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كالدين الإبراهيمي وتوحيد الأديان وتقاربها، فالاعتدال في الدين والتدين واضحة المعالم في الإسلام مستمرة، تلتقي مع العقل والفطرة وتتعانق مع الواقع الإنساني، وقدرات الإنسان، وتراعي كل الأمكنة وجميع الأزمنة.

إن الأمراض التي لا تقتل الجسم تنفعه، وهذا ما يُخَيِّمُ على الساحة الإسلامية من ابتلاءات يليها امتحانات يعقبها نجاحات — بإذن الله —.

وكلٌّ ما نراه ونسمعه ونعاني منه هو إرهاصات التوجه إلى التَّمكُّنِ والنَّصر، فنلمسه من خلال كيد هنا، ومكر هناك، ونشاهده في يأس اليائسين وتنافر الأخوين وعداوة الجارين، وهجرةٍ وتهجيرٍ، وسجونٍ سرية ومعلنة، وهيمنة على الذراع والمتاع... فالابتلاء ليس شراً أو هزيمةً، وقد ابْتُلِيَ الأنبياءُ والرسل والصالحون، واعتَدَى السفهاءُ من مكة والطائف على سيد الخلق وخاتم النبيين... ونتائج ذلك نراها اليوم فيما يقارب من ستين دولة مسلمة و(١٣٠٠) مليون مسلم، والقادم أفضل، والأطراف ظهر فيها التمدد والانتصار، فأغلب الدول – غير الإسلامية – في العالم احتل الإسلام المركز الثاني فيها، وأخذ مساحات كبيرة في الجامعات ومراكز البحوث، وله حضور في ميادين العلم والاقتصاد والسياسة، وأعداؤه في حالة ذهول من نموه وقوته وجاذبيته.

لذا لن نجزع إن استأسد ثعلب أو استنسر بغاث، ولن نخاف إن تَربَّصَ بالمسلمين عدوٌّ أو نالهم بلسانه ويده، ولن نتألم إن بغى مستعمر، فوظيفة المسلم العمل واستشعاره بأنه على ثغر من ثغور الإسلام، وطريق النصر هو طريق المِحَن، ولولا أن المسلمين والإسلام قوة ومنهج وثبات، لما تعرَّض وتعرَّضوا للريح والعواصف.

رأيت رؤيا العين أن الإسلام ينفرد بالصدارة بين الشعوب والحكومات، ورأيت رؤيا العين أن المسلمين يَلْتَمُّ بعضهم إلى بعض، ويقتربون بخطا ثابتة نحو دينهم، ويُرَتِّبون بخطا أوراقهم ويلتفون حول الثابت والمجمل والصريح، ويبحثون عن الوسطية والاتزان والقصد، ويزاحمون بمناكبهم أمماً ودولاً ليكونوا في المقدمة.

إن الوسطية من معالم الإسلام، ومن أهم صفات الأمة الإسلامية، والحديث عنها، وتأصيلها يجب أن يستمر حتى يصل إلى الجذور والزوايا، وتتحول إلى خصائص ملموسة ثابتة في الفرد والأسرة والمجتمعات والشعوب، وأخيرًا الأمة الإسلامية بأكملها : قال الشاطبي في الموافقات: «الشريعة جارية في التكليف، بمقتضاها على طريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد، من غير مشقة عليه ولا انحلال بل هو بتكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال».

فإذا تحقق هذا الأمل أصبح لدى الأمة مضادات حيوية فاعلة ضد الغلو والمجون، تتحرك آليًا، وتُعبِّر عن نفسها بدون مقدمات، وتزيل الكم الرهيب من التشوهات الوهمية، والتزييف الإعلامي المتواصل، الذي أخذ على عاتقه إرهاب العالم بدعاوى "الإرهاب الإسلامي" الكاذبة، وإبرازه للأطراف المتشددة البعيدة، وتضخيمها، وكأنها كل الإسلام وكل المسلمين، فالوسطية دواء لكل من:

(أ) الغلو:

والغلو حالة شاذة في أطرف اليمين، لا تؤمن بالخيارات أو التصحيح والمراجعة، رؤيتُها حادة وواحدة، أسيرة اللونين (الأبيض والأسود)، عدوة الإبداع والرحمة والتسامح، تنطلق من ضعف في العلم وتضخم في الإيمان، ليست حكراً على دين أو طائفة أو مجتمع ما، ومن مظاهره: الانقطاع عن عامة المسلمين، والنفور ، والكره، والتركيز على جوانب وإهمال أخرى، والفرقة، والإشكالية المُرَّة حينما يتم معالجة الغلو بغلو آخر، والغلو الأول نتيجة غلو

سابق، فيتواصل تفريخ الإرهاب من كلا الطرفين، ونلمس هذا واضحاً في احتقار الإسلام وتمزيق القرآن والإغراء بالنساء والظلم المركب والمتواصل، وامتداده إلى الأبرياء - حسب الروايات المتواترة عن المحققين الأمريكيين في جوانتانامو -.

ومن المؤكد أن الغلو سلوك نابع من التربية والتصورات الخاطئة وردة الفعل، وليس غريزة متأصلة بالإنسان، وعلاجها العدل والإصلاح والإحسان، ولا شك أن انتشار الغلو يعيق قيام الحجة وقبولها، وانتصارها يختلف باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة، والوسطية أفضل بيئتها، إن لم تكن بيئتها الوحيدة، فمن أخطر آثار الغلو تشويه صورة الإسلام، والعبث بمسيرته الحضارية، وفصله عن الحياة، وتضييق المفاهيم، وتنمية التطرف والتشدد، وتجميد بعض أحكام الشريعة السمحة.

(ب) المجون:

والمجون حالة بشرية شاذة في أطرف اليسار، تحمل معاني التقصير والتضييع، وتميل إلى الفوضى، والتمتع بالحياة بدون ضوابط، وإطلاق الغرائز بدون شروط، تحبُّ التحلل من القيود القانونية والشرعية والإنسانية، تعتمد على حرية مطلقة، يحركها التهاون والتساهل مع الكسل والجهل، وكأنها تميل إلى «الدهرية» أو «الوجودية اللادينية» ومن أسبابها: الخوف من التطرف، ووسائل الإعلام، والواقع، والتربية.

وتقصيرنا في كل أمورنا، - وخاصة في خطابنا الإعلامي والسياسي - جعلنا في حالة عجز كاملة في علاج الغلو والمجون، ورد الظلم وتصحيح الصورة، بل

وصل بالبعض من شرائح المجتمعات الإسلامية إلى قبول مصطلح "الإرهاب الإسلامي" وخطره، ووصل الأمر إلى تقليص المؤسسات الإنسانية الإسلامية، والمبالغة – أحيانًا – في تصحيح المناهج، وتراجع البعض عن منهجية الإسلام – حتى عن وسطيته – بحثًا عن السلامة، وفئة قليلة اختارت الغلو وأسقطت عليه آيات الجهاد، ومواقف أولي العزم، وتم توريمها إعلامياً، فقتلت نفسها وغيرها، وشوهت الإسلام، ولعل هذا ما يريده أعداء الإسلام والمسلمين، قال الشريف الرضي (٣٥٩هـ – ٤٠٦هـ):

يا قلبُ صبرًا فإن الصبر منزلة بعد الغلو إليها يرجع الغالي

ومع هذا يبقى الشيء الكثير للمسلمين في الإصلاح انطلاقًا من الوسطية الإسلامية، ومن أهم معالمها:

[١] إن الوسطية الحقيقية لديها وسائل عديدة في معالجة الفساد والغلو، وترويض أزمة الثقة مع الحاكم ومنه، وكسر عزلة العلماء الربانيين، وإدخال المثقفين المسلمين إلى واقع الأمة، وإصلاح الثقافة ذاتها، والوصول إلى الإعلام وإيقاظه، وإدارة الحوار بين الأطراف الداخلية، وبين المسلم وغير المسلم، وتنبيه الخطاب السياسي الإسلامي النائم ليشارك في معركة البقاء.

[٢] ليست الوسطية حركة منفصلة عن الأصول، وليست جزئية في الدين، إنها خطوة تَجَّمَعُ بين الواقع والواجب دون أن يكون بينهما صدام، و صبغة تمتزج بالعقيدة والعبادات والمعاملات والقيم الإنسانية المتفق عليها.

[٣] الوسطية الوسيلة المثلى داخل العالم الإسلامي في التواصل مع الجاليات الإسلامية خارج العالم الإسلامي، وبدونها سوف تبقى تلك الجاليات ممزقة أو

تختار – مكرهة – الانفصال، وفي هذه الحالة تتمزق عرى الأمة، وتضعف وإن كانت إمكانيتها كبيرة وعددها كثير.

[٤] أن الإصلاح بالوسطية يستدعي البعد عن التغيير بالثورة، ويرفض في الوقت نفسه التأجيل المؤدي إلى تأخر المجتمعات الإسلامية، أو تهميشها في الساحات الدولية المعاصرة، فعجلة الزمن سريعة الحركة، والصبر جميل إلا أن النفقة عليه من العمر.

[٥] من أهم مميزات الوسطية أنها تلتزم بالثابت وتراعي المتغير، فالأول يجب ألاّ يكون محل خلاف أو نزاع أو تنازل، ومن الأخطاء وضع المتغيرات في دائرة الثوابت، أو الثوابت على أرضية المتغيرات، فالوسطية لا تأخذ لوناً معيناً، إنها مجموعة من ألوان متقاربة، وأطياف منسجمة، وأطراف متآلفة يجمعها رؤية واحدة في الكثير من ملامحها ومواقفها، وإن اعتراها شيء من الاختلاف في بعض الهوامش.

[٦] إن المسلم الوسطي هو المسلم المتفاعل – بإجابية – مع الواقع، المستفيد – بأدب – من المخالف، الملتقي – بحرارة – مع الآخر، المتجه – بإيمان – لكل المسلمين، الراصد – بحكمة – تجارب الآخرين، وقبل ذلك كله: هو المتمسك بدينه وعقيدته.

إن الوسطية أخص خصائص المنهج الإسلامي، تتضح في القول والعمل والفكر والتطبيق، وتقع بين التكليف والاستطاعة، فالضرورات تبيح المحظورات، والمشقة تجلب التيسير، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكانت "صلاته – عليه الصلاة والسلام – قصداً، وخطبته قصداً" – رواه مسلم –، فالعقيدة تجد في الوسطية حياتها، والعبادات تجد في الوسطية كمالها، والفطرة السليمة تجد في الوسطية غايتها، والأخلاق تجد في الوسطية وهجها، والمسلم لا يغرق في الماضي ولا يذوب في الغرب، ولا يفنى في الله – كما يريد الصوفيون –، ولا يضع نفسه المحور الوحيد للكون – كما يزعم الماديون –، والاقتصاد الإسلامي لا يخرج عن هذا السياج، ولذا أخذ بالتمدد والنمو، وبشَّر علماء الاقتصاد الغربيون بمقدمه، فالاقتصادي الفرنسي / جاك أوستري أكد سيادة الاقتصاد الإسلامي في المستقبل، نظراً لتكامل أركانه، وجذبه للمزايا وطرده للمساوئ، وجاء بعده / ريموند شارل قائلا: «إن الإسلام يرسم طريقاً متميزاً للتقدم، ففي مجال الإنتاج يمجد العمل ويُحَرِّم الاستغلال، وفي مجال توزيع الثروة يقرر قاعِدَتَي: لكل واحد الكفاية أولاً، كحق وأمر إلهي مطلق، تَكْفَلُه الدولة لكل رعاياها على اختلاف أديانهم، ثم قاعدة: لكل تبعا لعمله وجهده وتفرده»، وهذا هو التوازن الحي الفاعل المنتج الواقعي، المرادف للمرونة والتكيُّف، المتلائم مع الواقع من خلال الأحكام الشرعية، المؤدي إلى الالتزام بدون تعنت، (فالطرفان – كما يرى أبو حيان التوحيدي – اللذان يكتنفان الاعتدال هما مذمومان مكروهان)، ومعاناة العالم، وحروبه، والخلل الاقتصادي والبيئي والتجاوزات وغيرها ترجع – أولاً – إلى المواقف الحادة، والأطراف البعيدة، وغياب العدل والوسطية.

ولن يضير مصطلح الوسطية محاولات تشويهه نتيجة غياب الروح العلمية الإسلامية، واختفاء الأهداف العليا للأمة، والتشتت السيئ، والأخطاء

المتراكمة التي أدت بـ «الوسطية» إلى التراوح ما بين السلفية والعصرنية، وإصابتها بالابتذال والتفريغ أحيانًا، ووصول ألسن العامة إليها، وأيادي الأعداء وجَوْرِهم، فتكثف الحديث عنها، وتنوع الانتماء إلى معالمها، وكأنها ولدت من عدة أرحام، واحتضنتها عدد من الأمهات!!

ومع أزماتها الكثيرة يبقى المصطلح إسلامياً، وسوف يرفض أيَّ فكر غريب؛ لأنه لا يعرف إلا الحق، ولا يحمل إلا معناه الصحيح وإن تكاسل أحياناً، أو خرج عن طريقه برهة أو لحظة، فالوسطية الإسلامية ليست حَدِّيَّة، ولذا تنمو فيها ومنها النزاهة والحرية والقيم والتواضع والحكمة والإصلاح... (وهي عوامل أساسية في الاستمرار والقوة).

إن الوسطية أخذت مكاناً ومكانةً قوية في هذا العصر، وزادتها الضغوط إشراقاً وحياة، ومن الأسباب:

[١] جذورها الدينية القوية.

[٢] منهج الشريحة الكبرى من المسلمين.

[٣] حملها لمعاني إنسانية كثيرة، ومتداولة كـ: (الحوار) و(التسامح) و(التعارف) و(التواصل) و(التعايش).

[٤] تنوع وتعدد الداعين لها.

[٥] علاجها لأهم قضايا الشعوب والدول الإسلامية.

[٦] غياب المعارض لها.

الوسطية من المتفق عليها بين المسلمين، يؤمن بها الجميع، ويرون أهميتها وتجذرها في الإسلام، ولن يضرها توالد الدروب عند إعدادها وإنزالها على

واقع المسلمين، أو حينما يتم إبراز مدلولها الشرعي، فقد يشكل ذلك اصطداما بالطوائف والتيارات والاتجاهات.

الوسطية منهج تُقرأ النصوص الدينية من خلاله لكيلا يصطدم الواقع بالواجب، ولا العقل بالنقل، ولا يتم إظهار نص وإخفاء آخر، أو انتصار طرف على مقابله.

الوسطية في الإسلام ليست تنازلات، أو تبسيطاً للأشياء، أو إلغاءً للثوابت أو تهميشاً لها، أو الرضى بالقليل من الإفراط مع مثله من التفريط والقبول بالتلفيق والترقيع.

الوسطية دواء وغذاء، ومن الأهمية الماسة نشر ثقافة الوسطية، وموقعها من الإسلام، وتيسير قبول المسلمين لها، والتفريق بين الكليات والجزئيات، وتعميم لغة الحوار، وقبول الاختلاف، بعدها تدخل أجزاء مهمة منها مذاهب المسلمين، وتوجهاتهم، ويكتشفون «التنوع المحمود»، وتكون قاسماً مشتركًا بين كثير من الزوايا والتيارات، فتأخذ بالتحرك والنمو والبلوغ، ويتم التعرف عليها، ثم فهمها، وأخيراً تطبيقها على أسس علمية شرعية.

وإنه من الواجب أن تكون الأمة - عن طريق علمائها ومفكريها - في حالة يقظة حية دائمة لكيلا يتحول مصطلح (الوسطية) إلى سلاح بيد جهالها أو أعدائها يفتك بالغلو وينسى المجون، أو أن يتم تفريغه من معناه فلا نجني منه إلا البعد عن الأسس الراسخة، وتمزيق عرى الهوية الإسلامية الحقة، أو تتحول إلى وسيلة من وسائل الالتفاف على الدين وتفريغه من الالتزام والانتماء والولاء والبراء، وتخفيف الأحكام الشرعية الثابتة، وعرض ثوابت الدين على

صناديق الاستفتاء، وهذا ما تدعو إليه بعض مراكز البحوث الأمريكية، وتضعه تحت عناوين براقة كـ (شبكات الاعتدال الإسلامية)، فتقوم حكومة بوش الأصولية بواسطة بعض أفراد المسلمين وبعض حكوماتهم في صياغة إسلام وسطي جديد، يتعانق مع المصالح الأمريكية ونمط حياتها، حيث تضع اليد على الشعوب الإسلامية بمصطلحات المسلمين، ودينهم يتم تفريغه من معناه الحقيقي، وطالما سمعنا الدعوة إلى الوسطية، والتطلع إلى إشراقاتها، والتصريحات حول أهميتها، والمؤلفات في مواصفاتها ومقاييسها، ولكن أين أطراف الأمة وبعض دواخلها من الخطوات العملية إليها؟ وأين هي من بعث إسلامي واقعي يجمع بين التطور والثبات، ويقود الإنسانية نحو التعارف والحوار والتسامح، وقبول الاختلاف؟ وأين الأمة من قيمها العالمية التي بثتها، وتبنَّاها الإنسان المعاصر، ودعت إليها قوانين حقوق الإنسان؟ أين هي من بضاعتها التي صدّرتها وهي – الآن – تصادرها؟ أسئلة مهمة وكثيرة، يليها أسئلة أخرى لأن الأمة على أعتاب فجر جديد، ومنها، ما هي دلالات الوسطية؟ وما مفهومها؟ وما تريد منا؟ وما نريد منها؟ وكيف ننتقل من جوانبها النظرية إلى مناطق حركتها؟ وكيف نحقق حضورها العمليّ؟

المداهن الضعيف استشف معناها من التكيف والملائمة والاعتدال الدبلوماسي، أما الثابت القوي فيراها محافظة وثبات، ومقاومة لليمين واليسار.

إن معانيها تتراوح بين فئات وأفكار وكأنها مصطلح «أهل السنة» و«الفرقة الناجية» كل يدعيها، وهي ليست بعيدة عن العين المؤمنة والقلب الصادق.

فلا وسطية إن لم تكن منهجًا شعبيًا يستمد معالمه وأدلته من القرآن والسنة، ليس ملكًا لسلطة أو حركة أو تيار.

ولا وسطية بوجود التعصب المذهبي أو الانتماء الأعمى للاتجاهات، أو الطوائف، أو التيارات، فبعض هؤلاء – مع الأسف – احتكروا الدين وزعموا أن مفاتيح الجنة بأيديهم.

ولا وسطية مستوردة تم فرضها من خارج الإسلام، ومن قوى غير إسلامية.

ولا وسطية إن لم يلمسها العامة في العلماء والمفكرين والصفوة.

ولا وسطية محصورة في ميدان الأقوال والشعارات دون العمل والسلوك، وإلا فالحديث عنها – قبل ذلك وبعده – من إضاعة الوقت وبعثرة الجهود، والادعاء بما لا نملك.

د. عبد الله بن عبد العزيز اليحيى
Y1371@hotmail.com





وسطية من وراء الحدود

«إن السلطان قلب العالم فإذا لم يكن القلب معتدل الأحوال انحرف العالم عن الاعتدال»

الإسكندر

«من فقد الاعتدال فقد الانتفاع بالعلوم جميعها»

أبو حيان التوحيدي

مدخل

وسطية من وراء الحدود

الأديان كالأفراد والمجتمعات والأوطان، يرفعها العلم والعمل والوعي، وتتعرض للمؤثرات والترويض والاختطاف، فأوروبا استولت على المسيحية وجعلتها مقدمة لخطواتها الاستعمارية، ولا زالت، والمجتمع الياباني صاغ الأديان الوافدة إليه بالمقاييس التي يريدها، ولا يزال، واليهود أثّروا على اليهودية أكثر من تأثيرها عليهم، والأسرة الصفوية وظفت التشيع في بلاطها، فخدمها ولم تخدمه، واستثمرته، وبقيت القومية الفارسية أقوى وأهم من الدين.

أما الإسلام فله وضع متميز، ومعالم مختلفة، وخصائص ثابتة تحميه من كل عوامل التعرية والنحت والتآكل، وهو في مجمله يتقدم وينمو ويقاوم، جاء التتار ليقضوا عليه فآمنوا به، وتمادت الشيوعية في استئصاله فخرج قويا بعد ثمانين سنة من تحت الأرض، وشكل دول إسلامية على أنقاضها، واستنجدت باريس بكل قوة غاشمة لفرنسة الجزائر فحررها الجهاد، وأصبح الإسلام الدين الثاني في فرنسا، وسعى رسام دنمركي في تشويه القدوة والرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام فأقبل الدنمركيون على التعرف بالإسلام، وآمن بعضهم به، ومن أسلم في أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر أكثر ممن دخلوا في الإسلام قبله.

هذه حال الدين الإسلامي على وجه العموم، وإن اعتراه ضعف مؤقت، أو وعكة طارئة، أو تخاذل محدود، فالإسلام بكماله وشموليته وتمامه قاوم جميع

الأعداء، ووقف شامخا أمام أنواع الشبهات، واستعصى على كل أنواع الإغراءات، وتجاوز كل الحواجز والمنعطفات.

دول كبرى فشلت في الاستيلاء عليه، وتوظيفه، وتفريغه، والآن تحاول تسخير بعض مصطلحاته للعبث به، وخفض مستوى عقائده، و إبعاده عن محور الحياة، واستطاعت أن ترصد الأموال، وتفعّل الإعلام، وترسل الجيوش، وتستعين بالتقنية والتقية، وكل ما بذلته وتبذله تحول إلى خسارة وندم، وهزيمة وحسرة، وليس أمامهم إلا أن يؤمنوا به أو يبتعدوا عن طريقه، أو يفقدوا عقولهم فيطلقوا الرصاص على القرآن ويستأجروا العملاء، ويقتلوا الأبرياء، ويتحالفوا مع الصهاينة.

إن أسباب قوة الإسلام وثباته وتمدده كثيرة، وواضحة – ولها مكان آخر – ولكن من أهمها أنه دين التوحيد الخالص، والرؤية الشاملة، والحلول الواقعية في كل لحظة وشبر، دين التنظيم والنظم، والعمل والأهداف، والحضور الدائم في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات، والتفاعل المتوازن مع العقل والقلب والفطرة، يحتاجه البدائي في حياته وابن القرن الحادي والعشرين في مختبره وأمام حاسوبه، دين الحوار والتسامح والتعارف والعدل.

وفي السطور الآتية مثال من محاولات إزالته أو اختراقه أو تهميشه بواسطة دعاوي الاعتدال والوسطية، أما النتائج فهي على أرض الواقع، وأمام عيون الناس رأيا ت الإسلام المرفوعة، وحضوره البارز، وعناقه مع العلم والتقنية.

والمسلمون فرض عليهم أن ينظروا إلى عدد من الوسطيات، وسطية صاغها المسلم من تقاليده وثقافته ودينه ومذهبه وتياره، واعتراها شيء من الخوف

والطمع والمؤثرات، ووسطية جاءت من خارج الحدود، ليس فيها من الإسلام إلا اسمه، خالية من الجذور، لا يُرى فيها ثمار، ووسطية أتت من رؤوس فيها شيء من اللين المكروه، وعليها بقايا سكينة مهلهلة، ومجاملات ساذجة.

وحقيقة الأمر أن المسلم لن يحتضن إلا وسطية الإسلام الصحيحة المتأصلة، فهي القوية الثابتة، وما سواها مراحل فشل، ومجسات امتحان، وخطوات فتن، وفئران مختبرات، ورغم هزلها وتفاهتها إلا أنها حملت الأمة – في مجملها – إلى الخالص والصائب، وأشارت إلى أن الكمال في التوازن والتناسب، والعدل من الاعتدال، والنفس السوية تميل إلى التوسط.

وإدراك هذا الصورة، وفهم زواياها، والتمحيص والتجربة تسهم – إن شاء الله – في اختزال الوقت لعودة الإسلام قوة عالمية ناعمة، تنشر السلام، و تخدم البشرية كلها، وتأخذ بيدها إلى الخير والأمن، والاختيار الحر.

و(التحدي العالمي) رغم قوته الخشنة، وآلياته، وأمواله، وإعلامه، ومنظماته، وصريخ سياسته يبقى ضعيف الروح بعيدا عن الوسطية، مشتت الهدف، فاقدا للعقل والاستمرار، وليس أمامه إلا العودة إلى بيته، أو قبول الحوار، والاعتراف بالآخر،

والإيمان بالاختلاف والحرية وحقوق الإنسان، والتزام الاتزان والاعتدال.
الإسلام قادم، وهو منهج الغد للدول والشعوب، ووسطيته مبثوثة في الأفكار والزوايا.

فالوسطية ثقافة وسلوك.

والوسطية تطور وثبات.

والوسطية آلية إصلاح الأمة.

والوسطية خطوات الأمة للقمة.

والوسطية مخرج العالم من الحصار.

والوسطية منطلق الأمة نحو العالمية.

والوسطية دواء المواجهة.

والوسطية بلسم التحديات المعاصرة.

والوسطية تكليف وتشريف.

إذا الوسطية ممتدة في الجذور، متجذرة في الفروع رغم تراكم التفاسير، وأما ما وصل إليها من تشويه وما تعانيه من اختطاف خارجي وداخلي والمساحات الوهمية التي أخذها الطرفان فلن تدفعها إلى الهوامش.

والوسطية مرجعية عامة صائبة في اتخاذ القرارات، وترميم القضايا، وتوحيد الأمة، وتثوير قواها الروحية والعقلية، وحفظ معالم شخصيتها، والسير بها إلى الأمام.

والوسطية أيضا أجواء وتربة متكاملة الجودة لكل من العدالة والألفة والحكمة، والوحدة والصبر والنصر، حيث تجمع بأدب ما بين المختلفين والمتنازعين والمتنافرين، وترشد برفق إلى الدروب والأراء والمنهج، وتعطي الجماعة والفرد والحكومة رؤية سياسية مقبولة، وعدل دائم واعتدال في السلوك، ووضوح في المواقف، وتمنحهم مضادات فاعلة ضد الجنوح، واختلال الفطرة، وتمادي التطرف، وهيمنة الفساد.

والوسطية السياسية لها مكان متميز كمكانها في مسارب الحياة فمن جذورها ينطلق العمل المشترك، المتشابك مع ندى العقل والأخلاق، المبغوث بالمصالح المتوازنة، والاحترام المتبادل.

فالمجتمع ثمار التاريخ، والسياسة تاريخ المستقبل، والتفاعل بين الإسلام والوطن والسياسة لغة اليوم، لأن الدين تربية والوطن حضن والسياسة مصالح.

ومن ينظر إلى العلاقة مع الغرب يلمس ابتعادها عن الوسطية، ومعاناتها من الدوار، تمخض منه صدام صليبي، واستعمار جشع، وحروب معاصرة، وسوء فهم، وضمور في العدالة، وتغييب التبادل المعرفي نتيجة النظرة الدونية، وتفعيل المصلحة الواحدة، وترسيخ الإذعان، والإتكاء على المصادرة، فطفت على السطح ثنائية متصادمة (الغرب والشرق / النظام والفوضى / الديمقراطية والدكتاتورية / الروحانية والمادية) مما أوجد شعور بأن الغرب فاقد للقيم عند بعض المسلمين وان الإسلام خارج التاريخ عند بعض الغربيين، ومن المؤكد أن ارتقاء الدول وبناء المنظمات الدولية، والألفة بين الشعوب والنمو الطبيعي للسياسة يحتاج إلى قواعد الوسطية الإسلامية والمتمثلة في :

- الإيمان بالاختلاف.
- تأصيل مبدأ الحوار.
- تعميم روح التسامح.
- تطبيق العدالة على الجميع.
- بث قواعد التعارف.
- أهمية إعمار الأرض.

والابتعاد عنها يجعل الوسطية السياسية كالجوهرة الثمينة في البيئة الملوثة، وبين العضلات المفتولة الجاهلة، وتحت الانتماءات العنصرية، فيستحيل إلتقاء الأمم والدول وهي متنوعة الأديان والطوائف واللغات والمصالح والقوة والمدارس، فإن لم تعانق الدول والشعوب - صادقة - تلك القواعد وتؤمن بها وتمارسها دخلت دوائر الكيد المميتة، وهذا ما نراه في أجزاء كثيرة من الكرة الأرضية، والسبب كل السبب في القطب الواحد، وعقيدة صراع الحضارات، ودعاوي نهاية التاريخ، والطمع في ثروات الآخرين.

المواصفات الأمريكية للمعتدلين الإسلاميين

السياسة الأمريكية الرسمية مع اقتصادها وإعلامها في قلق وخوف ومتابعة للإسلام السني، وللمسلمين في الشرق الأوسط، لما فيه من نفط وصهاينة وممانعة عقائدية، استعصت على العولمة الأمريكية التي أمسك بزمامها المحافظون الجدد، حيث تدعو استراتيجيتهم في شقها الثقافي إلى «تكييف الدين الإسلامي مع حقائق الحضارة الغربية بجعل العلمانية والحداثة أساس التكوين الثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية»[١]، ويعتقد / ديك تشيني نائب الرئيس (أن المنظمات الدولية وقواعد القانون الدولي ينبغي التعامل معها من منطلق مصلحي، فعندما تكون مفيدة للولايات المتحدة يعمل بها، وعندما لا تكون، يجب تجاوزها)، وأما اليمين المسيحي - وله أثره على السياسة الأمريكية - فإنه يتبنى رؤية صليبية للعالم، حيث يقسمه إلى أخيار وأشرار، ويهيئه للمجيء الثاني للمسيح في فلسطين، والنهاية المأساوية، وفي هذا الإيمان يكمن العداء للإسلام والمسلمين والانحياز لليهود[٢] والبعد عن الاعتدال.

ومن خلف هذا المسرح تفاعلت الأحداث، واستشاطت أمريكا غضبا في ١١ سبتمبر من أجل استثماره، وتم ضرب أفغانستان، وتفعيل الفوضى في الصومال، والحملة على السعودية، والتدخل في باكستان، والاضطرابات في الجزائر، والانقلابات في موريتانيا، والحرب في لبنان، والإعانات لمصر، والكيد للسودان، واحتلال العراق، وتحييد عدد من الدول العربية والإسلامية، وما

---

(١) المحافظون الجدد الوجه الآخر للصهيونية، عبد الله عمارة ص ٣٣.

(٢) تفكيك أمريكا، رضا هلال، ص ١٩.

مأساة فلسطين بمنأى عن عين كل مسلم وأذنه وقلبه وعقله، وهو يرى دعم الولايات المتحدة الأمريكية - مع اقتصادها وسياستها وإعلامها - جرائم الصهاينة، وخطواتهم في احتلالها، وإسكانها بعصابات مجرمة تجمعت من تسعين دولة، بعد طرد شعبها الأصلي بكل الوسائل أللاإنسانية، أو قتله بالأسلحة الغربية الفتاكة.

المسلم البسيط الجاهل بالسياسة في حالة غضب دائم على أمريكا، انطلاقا من إعاناتها الاقتصادية لإسرائيل، وتأييدها الدائم لمذابح الفلسطينيين وتنوعاتها، ودعمها للاحتلال وبناء المستوطنات، ودفاعها عن عنصريتها، وإمدادها بالسلاح والمال والمواقف السياسية الحادة، وتصريحاتها الدائمة والفجة، ومنها: مقولة وزير الخارجية الأمريكي / كولن باول: «أمريكا دولة يهودية مسيحية وأنا متعاطف مع أرييل شارون»[١]، وقول/ بات بوكانن - مستشار للرئيس/ نيكسون: الكونجرس: «أرض محتلة من قبل إسرائيل»[٢]، ويؤيده السيناتور الأمريكي / ويليام فولبرايت قائلا: «إن إسرائيل تسيطر على مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة الأمريكية»[٣]، وترى / كونداليزا رايس أن «أمن إسرائيل هو مفتاح لأمن العالم»[٤] وتعتقد زعيمة الكونجرس الديمقراطية/ نانسي بيلوسي أن «إنشاء إسرائيل أكبر إنجاز حققته البشرية في القرن

---

(١) صحيفة تشرين، ٢٠٠٣/٠٩/٢٤م.

(٢) صحيفة الجزيرة، ١٤٢٤/٠٣/١٠هـ.

(٣) أمريكا - إسرائيل و ١١ أيلول ٢٠٠١م، ديفيد ديوك، ص ١١.

(٤) صحيفة الوطن، ١٤٢٤/٠٣/٢١هـ.

العشرين»[١]، ويضع الرئيس/ بوش – بدون خجل – كل الشعب الأمريكي في خندق الدفاع عن إسرائيل، حينما تحدث في الكنيست قائلاً: «عندما تواجهون الإرهاب يكون عددكم ٣٠٧ مليون نسمة، لأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف معكم»[٢] والمؤلم إن كان / بوش يعرف (الإرهاب) الذي تحاربه إسرائيل، والجريمة الكبرى إن كان لا يعرفه، ومن الظلم وضع كل الشعب الأمريكي في خندق واحد مع العصابات الصهيونية التي تمارس الاحتلال والقتل والإبادة والاغتيالات يوميا.

ومع هذه التصريحات فإن الجانب العملي يتجاوز الأقوال المؤيدة لإسرائيل، ويشير إليه بقاء الكيان الصهيوني المحتل عشرات السنوات في قمة توزيع المعونات الخارجية الأمريكية، بل إن محور المساعدات الأمريكية لدول وشعوب العالم يكاد يكون «أمن إسرائيل»[٣] ولم تتوسع إسرائيل في بناء المستوطنات، وتغيير معالم القدس، والإعداد لإقامة الهيكل، واستجلاب يهود من زوايا الأرض، وبناء الجدار العنصري إلا باستمرار الأموال الأمريكية المتدفقة من الحكومة والشعب، ثم تأتي – بعد ذلك وقبله – عمليات إجهاض كل مشروع في الأمم المتحدة يدين إسرائيل، وإن لم ينجح الإجهاض فإن «الفيتو» بالمرصاد، إضافة إلى دعمها بالأسلحة، وتبرير جرائمها، وهذا ما جعل المتابع وغير المتابع والبعيد عن الأحداث على يقين تام أن أمريكا شريك مباشر واستراتيجي لجميع أفعال إسرائيل في فلسطين، وإنها لن تكون الوسيط النزيه والحكم العادل.

---

(١) صحيفة الشرق، ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٦م.
(٢) وكالات الأنباء (صحيفة اليوم) ١١/٠٥/١٤٢٩هـ.
(٣) مجلة المجتمع، ١٩/٠٩/١٤١٥هـ.

ويوازي الخطوط السابقة جهود (الصهيونية المسيحية) في أمريكا، والتهيئة للمسيح (المنتظر)، وتفعيل الروابط (التوراتية) بين إسرائيل وأمريكا، وتحريك (الإنجيليين)، ورؤية (المحافظون الجدد) للشرق الأوسط من خلال التوراة، وتأييد (صدام الحضارات)، وتسويق (نهاية التاريخ)، ونظرية (صناعة الأعداء)، واستهداف (الشر)، ومحاربة (الإرهاب)، واندماج هذه المصطلحات والمعالم والمنعطفات بعضها مع بعض صنعت عقائد وأيديولوجيات مهمتها ترويض وقتل المسلمين، وتشويه وتفريغ الإسلام من مبادئه، وبقاء الكيان الصهيوني وهيمنته وقوته، وأساليبه الدموية المتواصلة.

يضاف إلى ما سبق – أو من ثماره – تهميش العمل الإنساني الإسلامي، واتهام المناهج الدراسية، ومراقبة المدارس الدينية ومتابعة الفتاوى وحصار بعضها، ومحاربة فقه الجهاد، والإشراف على التحويلات المالية للمسلمين، واتهامهم بالإرهاب والأصولية، وتعميم حروب مؤلمة في أراض المسلمين يتمخض منها كل يوم هجرة وتهجير، ومخيمات وسجون غير قانونية، وأخرى طائرة، وثالثة سرية، وسجناء أشباح، يغذيها مفاهيم تؤصل الظلم والطغيان أمثال (محور الشر) و(خارطة الطريق) و(الشرق الأوسط الكبير) و(الضربات الاستباقية) و(الإسلام الجهادي) و(الأدلة السرية) و(الفوضى الخلاقة) و(الدول المارقة) و(أسلحة الدمار الشامل) و(تجفيف منابع الإرهاب)، وأصبح المسلم أمام جبهات وسهام عديدة وكأنه في حرب عالمية كبرى غير معلنة، وصلت إلى دينه واقتصاده وأرضه وتقاليده، فالولايات

المتحدة الأمريكية بإعلامها واقتصادها وقنواتها السياسية تمادت واعتدت، فتارة تحتضن المرتدين عن الإسلام، أو تشوه حقائقه بالأفلام، أو تطبع بديلا عن القرآن (الفرقان الحق) وتلقي بالصحيح في الأماكن النجسة، أو تحارب أسسه بالمؤتمرات الدولية، أو تقييده بقوانين تضعها من أجله، كقانون (مكافحة الإرهاب) و(حقوق الإنسان) و(الاضطهاد الديني) و(نشر الوعي بمعادات السامية في العالم)، ويطالب/ ديفيد ديوك، منتقداً «إذا كان الرئيس/ بوش جاد حقا في معاقبة الدول التي ترعى الإرهاب، وتدعمه، فعليه أن يبدأ بإسرائيل، الأمة التي انتخبت رئيسا لوزرائها - شارون - أسوأ إرهابي في العالم، وأكثرهم دموية، وممارسة للقتل الجماعي»[١]، وحرب أمريكا الإرهابية على ما تسميه الإرهاب فتحت أبواب الإرهاب على مصراعيه في إسرائيل وروسيا والصين وتركيا[٢].

أمريكا ودعاوي مشاريع الإصلاح والاعتدال:

ولا تزال الولايات المتحدة الأمريكية تقدم المشروع تلو المشروع لمنطقة الشرق الأوسط من أجل إحكام هيمنتها، وفتح الأبواب لشركاتها، وتعزيز الوجود الإسرائيلي، وتدمير هوية العالم العربي والإسلامي، والقضاء على ثقافته، وإلغاء خصوصيته، وتحويله إلى مخلوق ممسوخ عن طريق تقطيع صلته بدينه وماضيه وحضارته، وحرمانه - في الوقت نفسه - من ثمار إبداعات الرأسمالية الغربية ونجاحاتها المادية اليسيرة هنا وهناك.

---

(١) أمريكا - إسرائيل، ص ١٧.

(٢) الولايات المتحدة، الصقور الكاسرة، برند هام، ص ٢٢.

ومن أبرز المشاريع الأمريكية للشرق الأوسط:

(أ) (استراتيجية العمل الجديد):

بتوجيهات من الرئيس / جورج دبليو بوش أعد مجموعة من الخبراء وثيقة سرية بعنوان (استراتيجية العمل الجديد) هدفها التخطيط من أجل التفاعل مع المواطن العربي، والاتصال المباشر به من قبل العاملين في السفارات الأمريكية في الدول العربية، وتوظيف الرموز المثقفة المحلية للوصول إلى العامة، لكي تحقق التغييرات الفكرية، ويدعم هذه الخطوات "مكاتب اتصال" أمريكية تم إحداثها لهذا الغرض، تمخض منها الوصول إلى المئات من المثقفين والكتاب العرب والنفخ بهم، ودعوتهم إلى المؤتمرات والمنتديات، وتهيئه الظروف ليتحدثوا في الجامعات العالمية المتميزة، من أجل إعدادهم في اختراق المجتمعات العربية، والتمهيد لبث بعض التصورات والقضايا من خلال الرؤية الأمريكية، إضافة إلى مساعدة النخب العربية في تشكيل هيئات مدنية قوية، لتكون رافدا من روافد خطوات التغيير في الشرق الأوسط، وبالمقاييس التي يريدونها.

(ب) (تطوير الخطاب الإسلامي):

تطوير الخطاب الإسلامي عنوان ورقة أعدتها وزارة الخارجية الأمريكية، انطلاقا من خطاب / كولن باول في شهر تشرين الثاني ٢٠٠٢م، هدفها «تطوير الواقع الإسلامي ودمقرطته وفقا للنسق المعرفي الأمريكي».

ومن أهم بنوده:

[١] التأثير على المجتمعات العربية الإسلامية لكي تهمش الاهتمام بالدين، وتحوله إلى مؤثر ثانوي.

[٢] فتح المجتمعات العربية على سلوكيات الغربيين المعاصرة، ونشرها بينهم.

[٣] تقديم رجال الدين العقلانيين، وتأصيل حضورهم في الميادين الثقافية، والدعوة والفتوى.

[٤] نقل الخطاب الديني الإسلامي من الموضوعات إلى المفردات لأهميتها في تشكيل سلوكيات المجتمعات العربية، وطرحها ومناقشتها بأسلوب عصري كـ (الجهاد) و(اليهود).

[٥] السعي في تحويل المسجد إلى مؤسسة تربوية اجتماعية، يقوم بإدارته إحدى الشخصيات العامة وليس الإمام.

[٦] العمل على (وضع رجال الدين المسؤولين عن الدعوة تحت رقابة أجهزة الدولة، لضمان قيامهم بالتوجيه الديني المناسب، الذي يقضي على نزعات التطرف).

(جـ) (حرب الأفكار):

وأساس هذا العنوان مذكرة وجهها وزير الدفاع الأمريكي في ١٦/١٠/٢٠٠٣م إلى مساعديه لإيجاد خط فكري موازي للخط العسكري هدفها – جميعا – القضاء على الإرهاب، ويكون محور "حرب الأفكار" الوصول إلى القلوب والعقول، وتضمنت المذكرة (خطر المدارس الدينية الإسلامية) وسبل محاصرة نمو جيل إرهابي جديد محتمل، ومن الحلول التي قدمها الوزير إنشاء (وكالة معلومات) هدفها غسل العقول.

ومشروع (حرب الأفكار) جاء نتيجة الإحساس بالهزيمة العسكرية، وفشل استراتيجية القوة، أو الاعتماد عليها أولا.

(د) (إذاعة سوا):

محطة إذاعية أمريكية موجهة إلى شباب العالم العربي ممن هم أقل من ثلاثين عاما، من أجل أمركته، وتجميل صورة الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت البداية في آذار ٢٠٠٢م وغطت موجاتها مساحات واسعة من الدول العربية، ووصلت تكلفة إقامتها إلى (٣٥) مليون دولار، ويقوم بالإشراف عليها البليونير الأمريكي اليهودي / نورمان باتيز، ثم جاءت مجلة (هاي) باللغة العربية، وهدفها - أيضا - الشباب العربي، وبعدها انطلقت قناة (الحرة) التلفزيونية لمنافسة (الجزيرة) و(العربية) إن لم يتم ترويضهما.

ولا شك أن الإعلام الأمريكي الموجه للشرق الأوسط يؤدي رسالة وطنية أمريكية باللغة العربية، هدفها هز الحصون الدينية والفكرية للأمة ليصيبها بمقتل، كما فعل - فيما سبق - بقواها السياسية والعسكرية، وإلغاء التزامها بدينها أو تخفيفه على الأقل، وبالمقابل يؤكد/ باربرا فيكتور: «إن الدين في أمريكا لم يكن حاضرا في البلاد مثل ما هو عليه منذ ربع قرن، الله في كل مكان، وسلطة العقيدة، ومعجزة الصلاة تجتاحان كل دوائر البلاد، من الحلقات الأرفع للسلطة إلى الهواء الذي نستنشقه من الشراب الذي نشربه أو نمتنع عن شربه إلى ما لنا، من يمين الولاء إلى عَلمِنا وإلى نشيدنا القومي، من الصلوات في المدارس إلى الصلوات التي تسبق المباريات الرياضية إلى حد الابتهال إلى الله في أندية البستنة أو أندية الرماية، في المحاكم وحتى في السجون، حيث إن ٩٠٪ من المعتقلين البيض المسجونين بسبب جرائم خطرة وجدوا الله، وأصبحوا من المسيحيين الخلاصيين»[١].

---

(١) الحرب الصليبية الأخيرة، باربرا فيكتور، ص ١١٩.

(هـ) (الشرق الأوسط الكبير):

مصطلح أمريكي يقترب في شكله ومضمونه من (معاهدة هلسنكي) عام ١٩٧٥م، التي مهدت لمشروع تمزيق الاتحاد السوفيتي من باب الإصلاحات، وتبني حقوق الإنسان، واختراق العدو، وتأييد المعارضة وإعدادها للحكم.

انطلق هذا المصطلح من رغبة أمريكية غربية في الإصلاح الترويضي، وتحريك التنمية في البلاد العربية، واحترام الإنسان، وتفعيل دوره الحضاري، وحفظ المنطقة والعالم (من ظاهرة التطرف والإرهاب والجريمة الدولية، والهجرة غير الشرعية)، وأخذ أبعاد عالمية حينما أقرته مجموعة الدول الصناعية الثمان، وتتلخص محاوره بـ:

- تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح.
- بناء مجتمع معرفي.
- توسيع الفرص الاقتصادية.

ومن أغراض المشروع القاتلة أنه تم إعداده في مطبخ ومن طباخين خارج المنطقة، ووضع الكيان الصهيوني ضمن أسسه، بل أخذ نصيب الأسد من ثماره، وتم تسليمه زمام قيادته، إضافة لما في المشروع من دور في تجريد العالم العربي – القيادة والشعب – من حريته وإحالته إلى رهينة للقرار الأمريكي.

هذه أمثلة مختزلة عن المشاريع الأمريكية للمنطقة، تحمل في أعماقها ومجملها الحد الأقصى من الاستفزاز، وتعبر عن قمة الاعتداء والطغيان، وتدير عمليات التحريض على قياداته وشعوبه وعقائده، أما مشروع أمريكا الوسطي للإسلام والمسلمين فهو لا يخرج عن مشاريعها الإصلاحية المزعومة السابقة، والأسطر التالية تكشف الحقيقة، وتزيل ورقة التوت الصغيرة.

الإسلام المعتدل... (رؤية أمريكية):

الاتزان والاعتدال والوسطية من سمات الفطرة والعقل والدين الصحيح، ووجودها لازمة من لوازم السعادة والاستقرار، ودعاتها من أهل الحق والقبول والاحترام، إن لم تنم خطواتهم وكلماتهم عن ما يخالف شعاراتهم، أو تفضحهم مظالمهم وسوء سلوكهم، أو تعريهم توجهاتهم إلى مصالحهم الخاصة، وتكالبهم على المال والجاه، أو يدفعهم تيارهم وأبناؤهم وأقاربهم إلى الجبن والبخل وظلم الناس.

وسطية الإسلام هي الوسطية المتكاملة الصادقة الواضحة، وما سواها دونها مهما بلغت، والمسلم الوسطي له من كمال الوسطية، وانتمائها للكتاب والسنة، وصدقها ووضوحها ما التزم به منها، وخلاف ذلك كذب وادعاء باطل، وغير المسلم هو أبعد الناس عن الوسطية الحقة وإن علق به ما تلتقي حوله الأمم والشعوب من قيم مشتركة، والدعوة الأمريكية إلى الاعتدال الإسلامي كلمة حق أريد بها باطل، لأن دعوتهم تبعثرها المفاصل التالية:

- أنها نتيجة فشل أمريكا في المنطقة، وانتشار التشدد في نظرها.
- أنها مبنية على المصالح الأمريكية، ومحاربة الالتزام بالإسلام.
- أنها انتقائية، تصادر الولاء، وترحب بالمجون.
- أنها تخالف الإسلام، وتسيء للمسلمين، وتجردهمم من تراثهم وثرواتهم.
- أنها تخدم المشاريع الصهيونية في المنطقة.

وحقيقة الأمر أنه لم يعد الغرب الرسمي، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لغز معقد بالنسبة للعرب والمسلمين، فهم الظلمة والريح في وسط

النهار، كشفتهم خطوات عملية، وكلمات مكررة من عدة شخصيات، ومواقف متواترة، تعبر عن مكنونهم، وتفصل أهدافهم، وتوضح سبلهم، ولم يبق إلا سؤال واحد:

ماذا ستفعل أمم الشرق؟

أمريكا من خلال سياستها واقتصادها وأعلامها تمددت في بلاد المسلمين، وقدمت السلاح والمال لإسرائيل، ووضعت الخطط، وغلفت أهدافها بالرغبة في إصلاح الشرق الأوسط، وتطويره، وإنقاذه من الظلم والاستبداد، وكان لفلسطين وأفغانستان والعراق النصيب الوافر من وهم البناء، والأمن الكاذب، والرضا المشلول.

إن سوء الظن بأمريكا الرسمية له ما يبرره، والشواهد كثيرة والصور متعددة، ودعوتها إلى الوسطية والاعتدال لا تلتقي مع الأحداث الكبرى التي تسيرها، والأخبار اليومية التي تصنعها، والمواقف والتصريحات والدراسات والمقالات التي تدبجها مراكز البحوث والدراسات لديها، ومنها:

(أ) موقف الرئيس الأمريكي / بوش من تبسيط وتليين الدين الإسلامي وتفريغه وتهميشه، وأهمية انفتاح حكوماته، ودعمه للنخب والرموز الإسلامية الليبرالية، بينما يصر على: «التزامه بأمن إسرائيل كدولة يهودية، ووطن للشعب اليهودي» مما يؤكد كيل أمريكا بمكيالين، وتجافيها عن الوسطية، واستعانتها بالتدليس، وقد أكدت دراسة أمريكية أن بوش وكبار مسؤولية أدلوا بـ(٩٣٠) تصريحاً كاذباً لتبرير غزو العراق خلال العامين اللذين سبقا سقوط بغداد.

(ب) الصورة التي صاغها الإعلام الأمريكي عن المسلمين والإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر، خاصة داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وأوصلها إلى الرأي العام الأمريكي لإقناعه بأن كل مسلم مقيم في أمريكا يشكل خطرا على أمنها، مما فتح أبواب التحريض والعنصرية ضد الإسلام، وأصبح المسلم – في الغالب – مدان حتى تثبت براءته، ومن سبل إدانته دينه واسمه، وهذه الصورة بعيدة كل البعد عن الاتزان والعدل.

(جـ) اختلاف حجم التعويضات – الدية – للقتلى ما بين الصف الأمريكي والصفوف العربية والإسلامية، فبورصة التعويضات تشير إلى (١٠) ملايين دولار للأمريكي (تعويضات ليبيا لضحايا الطائرة الأمريكية)، أما إن كان القتيل مدني عراقي أو أفغاني أو ليبي تم القضاء عليه بالقصف الأمريكي المتعمد فإن الدية لا تصل إلى ٥٪ من القيمة السابقة في أحسن أحوالها، ليكتشف المتابع عبث العنصرية وغياب العدالة، والمسافات الواسعة بين الرجل الأبيض والملون، ودعاوي الاعتدال.

(د) من الصعوبة النظر إلى السياسة الأمريكية من خلال الرئيس / بوش، مجردة من انتمائه الأصولي المسيحي، وبعيدة عن المستشارين والمقربين له من المتدينين المتشددين وتأثيرهم؛ ويرى الصحفي الأمريكي /جيمس كارول أن ما تشنه الإدارة الأمريكية حربا صليبية حقيقية، وليست زلة لسان من الرئيس الأمريكي، ويراها عملاً إرهابياً، إرهابيا خالصاً[1]، كشفه الرئيس / بوش من خلال تصريحه أثناء حملته الانتخابية، القائل: «أريد منح السياسة الأمريكية

---

(١) الحرب الصليبية، جيمس كارول، ص ١٢.

رؤية مستوحاة من التوراة، فإنني أحمل رسالة سماوية»[1]، ثم تأتي بعد ذلك الدعوة للمسلمين إلى الاعتدال والوسطية الأمريكية، والحث على الاتزان والرفق وضبط النفس في الشرق الأوسط وتقزيم التدين.

(هـ) التحذيرات الأمريكية المتنوعة والمتواصلة للأوروبيين من انتشار الإسلام في أوروبا، وخطره، والتحريض ضده، وتحريك مصطلح (أسلمة أوروبا) و(المسلمون الفاشيون) و(الإسلام الفاشي) وما يرافقها من عداء صريح نشرها / دانيال بايبس في ١١ مايو ٢٠٠٤م و١٤ نوفمبر ٢٠٠٦م في صحيفة نيويورك، وما سطره / برنارد لويس في كتابه (أوروبا والإسلام)، غير التقارير الأمنية والإعلامية المتكررة، والأحداث العنيفة التي تطبخ بليل وتعلق في رقاب المسلمين.

(و) الاحتلال الأمريكي للعراق، المبني على إزالة الطغاة ونشر الديمقراطية، ومحاصرة الإرهاب، وتنظيف المنطقة من أسلحة الدمار الشامل، والتي أثمرت نتائج مؤلمة يعبر عنها مليون قتيل عراقي، وتهجير مليونين، وأربعة ملايين لا يحصلون على كفايتهم من الغذاء، أما المرأة العراقية – وبعد سنوات من الحرب – فقد ربحت نصوص دستورية غربية الهوى، وخسرت الطمأنينة والاستقرار والبيت السعيد مما دفعها إلى العمليات الاستشهادية، وتكمل (اليونسيف) الصورة قائلة (العراقيون يعيشون وسط أكبر تجمعات للألغام الأرضية والذخائر)، هذا غير قتل العلماء وتفتيت التاريخ، وسرقة الآثار، والقضاء على البنية الأساسية للتنمية، ووضع اليد على النفط، وإشعال الطائفية، وفتح

---

(١) صحيفة الشرق، ٠١/٠٧/٢٠٠٤م.

الأبواب لإيران، وزراعة المخدرات، واستنزاف الخيرات، ومحاربة الهوية العربية، ومحاصرة الإسلام السني، وفتح الدروب للتنصير، والتصريحات المتواصلة باستمرار الاحتلال، وكل ذلك من أجل إسرائيل، و١١٥ مليار برميل نفط عراقي، والقضاء على الدول المارقة، وتحقيق نبوة اليمين المسيحي.

وقفات لا تتجاوز أن تكون أمثلة مختزلة، وعلى أرض الواقع أكثر منها، وكل يوم يولد من التصريحات والأفعال ما يؤكد سوء الظن، ويوسع الفجوة، ويحرج المعتذر، ويؤلم المحب والمعجب، مع ما تظهره الأيام من خطط ومؤامرات ووثائق ومعلومات تضع النقاط على الحروف.

بحوث أمريكية عن الاعتدال:

الإشكالية القاسية أن مراكز الدراسات والبحوث الأمريكية وصل بعضها إلى صياغة القرار الأمريكي السياسي، وليس إمداد صانع القرار بالمعلومات والأفكار، والإشكالية الثانية جهل أغلب الباحثين في تلك المراكز بالإسلام ودوائره، وحدوده والمنتمين إليه، وبعضهم يرى أن الأزمة مع الإسلام نفسه، ومن العبث تقسيم المسلمين إلى إرهابيين ومعتدلين، وأحيانا ترى أن الاعتدال الإسلامي مختطف من قبل المتشددين، وآخرون مهمتهم دعم إسرائيل وحمايتها بتزييف المعلومات، وتضليل الرأي، وفئة من الباحثين يصبون جام غضبهم على المملكة العربية السعودية، وأنها منبع الأصولية، ويعبر عن كل ما سبق إطلالة مختزلة على عناوين البحوث الأمريكية حول الإسلام واعتداله... ومنها:

[١] «محاولات للبحث عن الإسلاميين المعتدلين»، إعداد / جوشوامورافشيك و/شارلزبي سروم.

[٢] «حول السياسة الأمريكية للاتجاه الإسلامي، مراجعة نظرية وتطبيقية»، إعداد / روبرت ساتلوف.

[٣] «الإخوان المسلمون المعتدلون»، إعداد/ روبرت إس. ليكن و/ ستيفن بروك.

[٤] «التجديد في الإسلام من أجل الإنسانية» عنوان مؤتمر أقامه (مركز الدراسات الإقليمية والدولية) في جامعة (جورج تاون).

[٥] أصدرت مؤسسة (راند) عددا من الدراسات والتقارير، هدفها – في زعمها – تقديم إجابات واضحة ومفصلة من خلال بحوثها عن الإسلام وأمريكا والشرق الأوسط، والإشارة إلى الطريق الجيد والآمن المؤدي إلى اعتدال المسلمين في هذا العصر، والتسلل إلى أسس دينهم، وصياغته لكي يخدم المصالح الأمريكية وإسرائيل المختفية – غالباً– خلف السطور، وأهم البحوث الصادرة عن (مؤسسة راند) في هذا الميدان هي:

(أ) «حلفاء محتملون.. علمانيون وليبراليون وصوفية».

(ب) «مواجهة الإرهاب الجديد».

(جـ) «العالم المسلم بعد ١١/٩».

(د) «الإسلام المعتدل.. الشركاء والخطط».

(هـ) «حرب باردة لاحتواء المد الإسلامي.. شبكة دولية من المسلمين المعتدلين».

(و) «تيارات الإسلام المعتدل».

وهذه التقارير والبحوث قدمت (الاعتدال) من منظور أمريكي وتحصره – أحيانا – بالمجموعات الإسلامية التالية:

[١] المواطنون العاديون البعيدون عن السياسة.

[٢] مجموعة الدول الصديقة كالأردن ومصر.

[٣] الليبراليون والعلمانيون المتعاطفون مع قيم السياسة الغربية وثقافتها.

[٤] أولئك الذين يرون أنهم ضد العنف.

وتقدم بعض الدراسات أسئلة ستة للجماعات الإسلامية لكي تتجاوز امتحان القبول الأمريكي للاعتدال وهي :

س/ هل تقبل الجماعة الديقمراطية، وتمارسها داخليا؟

س/ هل تتجنب العنف لتحقيق أهدافها؟

س/ هل تدين الإرهاب؟

س/ هل تدافع عن حقوق الأقليات؟

س/ هل تؤمن بمساواة المرأة بالرجل؟

س/ هل تقبل تعددية التفسيرات داخل الإسلام؟

فالجماعات التي تجيب بـ (نعم) تستحق التقدير والدعم، والجماعات التي تسعى لقبولها يجب مساعدتها.

وتمنح بعض التقارير «الاعتدال» للقطاعات الإسلامية التالية :

[١] العلمانيون، وهم ثلاث فئات :

(أ) العلمانيون الليبراليون.

(ب) العلمانيون الأتاتوركيون.

(جـ) العلمانيون السلطويون.

[٢] الإسلاميون الليبراليون.

[٣] المعتدلون التقليديون، والصوفية.

ودراسات أمريكية تتجه (شكلا) إلى التقسيم الجغرافي وتتحدث بإعجاب وتقدير عن :

- المسلم الأوروبي المعتدل.

- التجربة الأندونيسية الإسلامية الليبرالية.

- العلمانيون في الشرق الأوسط، ودورهم الهام في مواجهة التيار الإسلامي.

وتضع البداية من أطراف العالم الإسلامي (جنوب شرق آسيا)، وتنطلق مشاريع الاعتدال منهم، حتى تصل إلى القلب (الشرق الأوسط)، الملبد بالأصولية والدعوة للجهاد والخلافة، والالتزام بالنص القرآني.

وكتاب (العالم المسلم بعد ١١ سبتمبر) يفرض مساواة ظالمة بين (التيار العلماني) و(الإسلام المعتدل) ويوزع المسلمين إلى مناطق، المناطق السلفية، والمناطق المعتدلة، والمناطق الراديكالية، ومؤسسة ((راند)) تربط بين القاعدة والجهاد، وترى أن من المهام اللازمة:

[١] مهاجمة العقيدة الجهادية في الإسلام عن طريق (نشر الوسطية، ومحاصرة الفتاوى، وتحديث الخطاب الإسلامي).

[٢] مراقبة المال الإسلامي لأنه المحرك المهم للمجاهدين.

[٣] الضغط على المدارس الممولة للإرهاب بالمجاهدين.

مؤكدة أن الحرب الحقيقية ضد القاعدة والجهاديين تنطلق من حرب الأفكار، التي إن تحققت فإنها ستنزع الشرعية عن الإرهابيين، وتنهي مصداقيتهم، وتهيئ الجماهير الإسلامية لرفضهم.

وتتجه دراسة أخرى إلى تحديد التيارات في العالم الإسلامي، باحثة عن المعتدل والمقبول منها، وتضعها تحت العناوين التالية:

(أ) الأصوليون، ويمثلها النصيون وهم (الوهابية، والشيعة)، والمتطرفون (القاعدة، وحزب التحرير)، ومن الأفضل محاربتهم عن طريق ربطهم بالعنف، لأنهم أبعد الجماعات الإسلامية من تحقيق مصالح الغرب.

(ب) التقليديون وهم محافظون يمثلهم (علماء السعودية والأزهر) وإصلاحيون يعبر عنهم (الدعاة الجدد)، ومن الأفضل الاستعانة بهم في محاربة الأصوليين، وإن كانت الثمار قليلة (في تصوراتهم).

(جـ) العصرانيون، ويمثلهم الكاتب / شحرور، وهم ضعفاء ودرجة قبولهم ضعيفة، وعلى أمريكا دعمهم بطرق غير مباشرة.

(د) العلمانيون، ومن الصعوبة الاعتماد عليهم، لقلة تأثيرهم، وبعدهم عن المصداقية في مجتمعاتهم، ولأنهم يؤمنون بالقومية والوطنية أكثر من إيمانهم بقيم الغرب.

وبعد البحث والتقصي من الباحثين، تأتي مجموعة كبيرة من التوصيات المذيلة بالبحوث والمتباينة، والمؤدية إلى معالجة التطرف ونشر الاعتدال بالمواصفات الأمريكية... ومنها :

[١] دعم المعتدلين الإسلاميين في حربهم للمسلمين الراديكاليين.

[٢] رفع قدرات المعتدلين، ودعمهم إعلاميا وتعليميا، واحتضانهم في المؤتمرات والندوات، وتكثيف الأضواء عليهم، وإبرازهم.

[٣] تعميم الديمقراطية وتبني المنظمات غير الحكومية، والتصدي لمحاولات تطبيق الشريعة الإسلامية، وأحياناً تحذّر من التوجه إلى الإسلاميين وتفضيلهم على الليبراليين القريبين إلى أمريكا وإن كانوا أقلية، وعلى واشنطن – من كلمات التحريض – ألا تخرج عن الطريق من أجل الإسلاميين، ومن الأخطاء الفادحة أن تفكر بالاستسلام فالنصر قريب، والتشدد الإسلامي عقيدة ضعيفة هشة.

[٤] بناء قاعدة بيانات عن المعتدلين والشركاء، وتحديث آليات الرصد والمتابعة.

[٥] وضع الخطط لتقزيم الإيمان والتقوى، وإضعاف أثرهما لدى المسلمين، على اعتبار أن الإرهاب ثمار الولاء للإسلام، وإبعاد المسجد عن حياة المسلمين عن طريق تهميشه أولا، وإيصال الليبراليين والمعتدلين إلى منابره، وتنظيفه من حملة الأفكار المتطرفة وأصحاب الغلو.

[٦] تقديم المال لعدد من القناوات الفضائية والإعلاميين والمثقفين المتفاعلين مع التعددية والاعتدال والديمقراطية، والنمط الغربي.

[٧] فرض الرؤية الغربية لحقوق الإنسان وما فيها من حريات مطلقة كالشذوذ وتحرير المرأة وتغيير الدين، والفصل بين الدين والحياة.

[٨] الضغط على الدول الإسلامية والعربية من أجل إقامة علاقات مع إسرائيل وتحقيق التطبيع وإلغاء المقاطعة.

[٩] تشكيل جمعية مركزية، وجمعيات (فروع) للاعتدال والوسطية في بعض الدول الإسلامية والعربية، ومن الأفضل التعاطف مع التصوف والتشيع وفتاوى الأحناف، لتقف أمام السنة والحنابلة والوهابية (في نظرهم).

هذه أهم التوصيات المؤدية إلى الاعتدال الإسلامي بالمقاييس الأمريكية، والبحوث والتوصيات مؤشر على خوف الولايات المتحدة من الإسلام والمسلمين، وخوفها من وسطيته واعتداله لا يقل من رهبتها مما يسمى بالأصولية والإرهاب، لأن الدراسات عن الاعتدال والاتزان اصطدمت بالعجز – حتى الآن – من تحديده، ومن الاطمئنان إليه وأسلوب التعامل معه، وغموض أسسه في نظرهم، وضعف القائمين عليه، وإمكانية تطبيقه، والخلط بين الجهاد والإرهاب، والتقاطعات بين الشورى والديمقراطية.

إن شرائح (العلمانيين والإسلاميين الليبراليين والمعتدلين والتقليدين والصوفية) في العالم الإسلامي، وخاصة في الشرق الأوسط يمثلون الاعتدال القريب إلى المواصفات الأمريكية في نظرها، ولكن فئة من الباحثين يرون أن المسلمين شيء واحد ما داموا مخلصين لعقائدهم، وإن الإرهاب في الإسلام نفسه، وفئة ترى أن هؤلاء الشرائح الاجتماعية لا تؤثر، بل إنها تتأثر – في النهاية – بالأصولية والغلو، وبعض الباحثين يظن أن الاعتدال يخالف صدام الحضارات، ومجموعة منهم هدفها الحقيقي أن يتحطم مشروع الوسطية الصحيحة والزائفة لكي تتحول الحرب ضد الإرهاب إلى حرب على الإسلام ووسمه بالشر، وما يدعون إليه من اعتدال إنما هو مرحلة من مراحل الحرب وتشتيت للمسلمين، وسوف يوجهون سلاحهم إلى المعتدلين بعد القضاء على الإرهابيين، إن لم يكن بدأوا بتوجيهها الآن، يليهم الليبراليون... وهكذا....

واعتدال المسلمين ليس هدفا أمريكيا، ولا ينطلق من عقيدة وأيديولوجيا يؤمنون بها، إنه وسيلة فقط، وخططهم نحو التوازن والوسطية مآلها الفشل ويؤكدها:

(أ) إن المسلمين الإرهابيين والمتشددين والأصوليين والمعتدلين والليبراليين والتقليدين وغيرهم لا يُحاربون من قبل أمريكا لذاتهم، وإنما لخطرهم المزعوم على المصالح الأمريكية فقط، بغض النظر عن الحرية والمساواة والديمقراطية، وحقوق الإنسان وأسلحة الدمار الشامل، والحكام الطغاة، وهذا ما يجعل الدعوة الأمريكية للاعتدال زئبقية في المفهوم والتطبيق، ولو وافقت حكومة طالبان في أفغانستان على خط البترول الذي يمر بأراضيها مع مشاريع اقتصادية أمريكية أخرى لما تم الاعتداء عليها وإسقاطها.

(ب) من الصعوبة بل المستحيل القبول ببذور (الإسلام المعتدل) المستوردة من أمريكا، وقد أثمرت بذور أمريكية سابقة في فلسطين وأفغانستان والعراق وغيرها الشوك المر، والقتل اليومي، إضافة إلى أن دعاوي الاعتدال الأمريكي يختلف مفهومها عن وسطية الإسلام، فالمحصلة النهائية للاعتدال الأمريكي للمسلمين يلزمهم أن يكونوا أقل إيمانا وتقوى، وينطلق من سؤال مرتبك حول توافق الإسلام مع الحضارة الغربية، ويجيب الكاتب الأمريكي / جون إسبيزتو بأن السؤال يحمل بين جوانحه «تجاهلا لتداخلات الماضي والحاضر والتفاعل المشترك، كما أنه يضع الحضارة الغربية في مرتبة متقدمة باعتبارها النموذج الكوني»[(١)].

(جـ) إنه وسيلة لفتح جبهة ثقافية أمريكية بمصطلحات من البيئة على العالم الإسلامي، تعضد الجبهات السياسية والعسكرية، ويحرك صداما داخليا بين المسلمين، ويتمم صراع الحضارات، ويؤجج الاشتباكات العنيفة بين الطوائف والقوميات والتيارات، يؤدي – في النهاية – إلى مشروع (الفوضى الخلاقة)، ويؤكد أن الاعتدال المفروض هو سلاح أمريكي ثقافي فاعل، موجه إلى الإسلام والمسلمين في الشرق الأوسط خاصة.

(د) ترى أمريكا أن قضية فلسطين، ومشاريع السلام هما مفتاح تطور المنطقة، واستقرارها، وهي – أيضا – الخطوة الأولى والمهمة إلى محاصرة التشدد وتعميم الاعتدال، ومن الأفضل دفع العرب إليه، هذا المفتاح صحيح، ويملك الكثير من الواقعية، ولكن الشيطان يختفي في التفاصيل كما يقال، والعقبة الكبرى أمام السلام مواصفاته التي تريدها أمريكا لصالح الصهاينة،

---

(١) الحرب غير المقدسة، جون إسبيزتو، ص ١٤٢.

والفروق الشاسعة – في نظر أمريكا – بين اليهودي والفلسطيني، وضغطها لتحقيقه على العرب دون إسرائيل!!!!، إضافة إلى غياب العدالة في القضية.

(هـ) إن فرض الولايات المتحدة الأمريكية الاعتدال الإسلامي على المسلمين بمواصفات أمريكية، وما يرافقه من هوامش وترهيب وترغيب إنما هو ضد الدستور الأمريكي، ويخالف قوانين حقوق الإنسان، ويتعارض مع أسس العلاقات الدولية، ويناقض قانون الاضطهاد الديني الأمريكي الصادر عام ١٩٩٨م، واعتداء على دين ينتمي إليه (١٣٠٠) مليون نسمة، مما يجعل المشروع في مهب الريح، خاصة إذا وصل إلى الحكم في أمريكا الحزب المخالف.

(و) إن منهجية أمريكا بعيدة كل البعد عن التوازن والوسطية، يعبر عنها سلوكها بعد أحداث ١١ سبتمبر، وتمريرها لمصطلح (طغيان التوازن)، وتأكيدها على تقسيم العالم إلى (شر وخير) ووضع الدول (الحليفة) أمام الدول (المارقة)، ورفع شعارات مزيّفة (القتال من أجل الحرية) و(القتال من أجل العدالة)[١] و(الحرب العادلة) و(القضية العادلة)، والإيمان القوي بأنه «ينبغي قصف أفغانستان بلا رحمة وذلك لصالحها ولصالح الخير الأكبر»[٢]!!!، والعرب – في العقل الإنجيلي الأمريكي – مجرد أحجار شطرنج في لعبة مقدسة كونية، وقوة هيستيرية لا تصلح لأي دور إيجابي أو إصلاحي في التاريخ... إنهم أعداء الرب، ونزاعهم مع إسرائيل تحد لإرادته[٣]، فالبحوث عن مزاعم الاعتدال، وما تطبقه الولايات المتحدة الأمريكية على أرض الواقع يصب في

---

(١) ما وراء ١١ سبتمبر، فل سكراتون ص ٢٧.

(٢) السابق، ص ٢٧.

(٣) تفكيك أمريكا، ص ١٠١.

اختيارين مؤلمين لدى شرائح إسلامية كبيرة، إما أمريكا و إما القاعدة، تزداد الحيرة والقلق وتنقص مع الأحداث وضغط الواقع، وجميعها ضد الاعتدال والوسطية.

(ز) إن المظالم الأمريكية المباشرة وغير المباشرة على المسلمين هي المحرك الأول للعنف والإرهاب والأصولية، وليس الالتزام بالإسلام، وتفعيل آلياته كالمؤسسات الإنسانية، والمدارس الدينية، والخطاب الصحوي، والدراسات العلمية والاستبيانات الميدانية ولغة الأرقام عن الإرهاب تشير إلى أن ٥٪ من المسلمين يمكن تصنيفهم بأنهم أصوليون، وإن ٠,٠١٪ منهم يميلون إلى الإرهاب الديني، ويقدر هؤلاء بـ (٦٥) ألف مسلم من (١٣٠٠) مليون، فإذا ربطنا هذا العدد بالقتلة في أمريكا وعددهم وصل إلى (٢٠٠) ألف قاتل من (٣٠٠) مليون أمريكي، فأي الأمتين أكثر إرهابا، الأمة الأمريكية أم الأمة الإسلامية؟!!!، ولغة الأرقام تؤكد – أيضا – أن القتلى في القرن العشرين تجاوزوا (٢٥٠) مليون نسمة، تتحمل الحضارة الغربية الرسمية ٩٠٪ منهم، وتقرير الشرطة الأوروبية يلتقي مع الأرقام المذكورة، حيث أفاد إن عدد الهجمات الإرهابية في أوروبا وصلت (٤٩٨) هجمة عام ٢٠٠٦م للمسلمين منها هجمة واحدة فقط، ومن زاوية أخرى يؤكد / فل سكراتون – أستاذ العلوم الجنائية – (أن الإرهاب قد ولد من رحم القوة المطلقة والشرعية للمصالح الاقتصادية السياسية التي تعد جوهرية لنمو الرأسمالية العالمية ومتانتها وديمومتها[1]، وأما النصوص الإسلامية المقدسة فلن تجد فيها ما يوازي أو يقترب مما ورد في سفر صموئيل القائل: «لا

(١) ما وراء ١١ سبتمبر، ص ٣٣.

القائل: «لا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنما، جملاً وحماراً».

ما سبق إطلالة سريعة على زاوية صغيرة تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية، يحركها المحافظون الجدد، واليمين المسيحي، والشركات، واللوبي الصهيوني، والآمال تتطلع إلى الغد القريب المنطلق من الاحترام المتبادل، والمعاملة بالمثل، وتقدير المصالح المشتركة، ومراعاة الإنسان وحقوقه، ومن هذه المعالم يصل الجميع إلى الأمن والاستقرار، والأخوة الإنسانية الكبرى.

ملاحظة:

❖ يمكن لمعرفة الكثير من المصطلحات الواردة في البحث الرجوع إلى كتاب (إمبراطورية الأكاذيب ... مصطلحات الخداع الأمريكي بعد أحداث ١١/أيلول) لـ"نبال خماش".

❖ لمزيد من المعلومات عن عناوين الدراسات والبحوث المشار إليها في البحث الاستعانة بـ (محركات البحث في الحاسوب).



المرتكزات والمنطلقات

«من اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الامة الوسط ، مهتدياً الى الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»

ابن تيمية

مدخل

الله سبحانه وتعالى انفرد بالوحدانية، قال تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

[الإخلاص].

وعبادة الله سبحانه وتعالى وسطية ثابتة، تُنْقذ الإنسان من عبثية شهوانية حيوانية في أطراف اليسار، ومن الخضوع للأوثان والطواغيت والشياطين في أقصى اليمين، وثمارها السعادة والاستقرار، والانتماء، والأمن بأنواعه، والانسجام التام مع الفطرة والعقل وسنن الحياة المتجذرة.

وأقام الحكيم الخبير الكون وما فيه على الثنائية المتنوعة الإيجابية، وهي سر الحياة وإعجازها، قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يسين : ٣٦].

وقال العزيز الحميد: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

أما ثنائية التضاد: فهي امتحان لإرادة الإنسان، ومؤشر النصر أو الهزيمة، والخيار الصعب بين الإيمان والكفر، والكذب والصدق، والأمانة والخيانة، والعدل والظلم، والحق والباطل، والإرهاب والتسامح، والانغلاق والانفتاح، والاستبداد والحكم الرشيد، والاستعمار والتحرر، والفساد والإصلاح، والجنة والنار ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥]، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة : ٧٢].

وبين النور والظلام: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

[البقرة : ٢٥٧] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد : ١٦].

وبين الخير والشر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء : ٣٥]

وما بعد الانفراد والثنائية إلا الثلاثية، وما زاد عنها يعود إليها، والخيرية في الوسط دائما، وهي طرفان ووسط، وإن تعددت الأطراف وتنوع الوسط، فالشجاعة بين التهور والجبن، والجود بين البخل والإسراف.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٩]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧].

فالإسلام وسط بين اليهودية والنصرانية، والعرب وسط بين الروم والفرس، وقبلة الإسلام وسط، ورسول الله ﷺ كريم الطرفين وسط في عشيرته، وفي جميع ميادين الحياة وقضاياها تُنْزَل المواقف والخطوات بين طرفين ووسط، الأطراف دائماً شاذة، وأصحابها قلة، والوسطية ذات دلالات واسعة؛ لأنها في سعة من أمرها، ولأنها تُشكّل الأكثرية، وتمثّلهم، وإن كانت – أحياناً – تتماس أو تتقاطع مع دوائر الإفراط والتفريط، أو يؤثر فيها المكان والزمان، قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحميّ فاكْتَنَفَتْ بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وتجاذُبُ الطرفين لها جعل (التعادليَّة) نادرة، ولكن عالجها الإسلام بـ (سَدِّدوا وقاربوا) متفق عليه، بعد أن وضع المعالم وحدد الصفات، وأبان للأمة المحجة البيضاء والصراط المستقيم، فأخذت المساحات الكبيرة، والإقبال

المتميز، واستظلت بها الأمة جيل بعد جيل حتى يومنا هذا.

إن كثيراً ممن لا يعرف وسطية الإسلام اندفع - بدرجات مختلفة - نحو دعوات تتراوح ما بين الخيال والمثالية والمادية، ومن بين العديد من الأنقاض يظهر الإسلام محترماً للفطرة والعقل والغريزة، يجمع بين الثبات والتطور، والانغلاق والانفتاح، والعالمية والمحلية، وينطلق من الواقع.

إن الوسطية لا تقدم - فقط - لمسات يسيرة للحياة، ولكنها تتجذر في الإدراك والموضوعية فتظهر آثارها على المسلم وعلاقته بربه ودينه ورسوله ونفسه وأسرته ومجتمعه وأمته والعالم أجمع، وبشكل متناسق يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، يقول / "يول": «إن الاعتدال والتوسط في كل شيء هما الفكرة الأساسية للإسلام»[1]، والوسطية في السلوك الإنساني مطلب عالمي، وأمنية بشرية، ووسيلة مهمة لكل المجتمعات لكي تعيش في أمن واستقرار وسعادة، والمرجع الوحيد بعد الإفراط والتفريط، ويجب أن تكون - على المستوى الرسمي - استراتيجية نهضوية تعضد لها القوة والعدل والمساواة والمصلحة، واضحة المفهوم والأهداف والوسائل.

الإسلام يربط الإيمان بالحياة، ويسعى - ما وسعه الجهد - أن يكون منهج المسلم قريباً جداً من سلوكه، وهو - بهذه الحالة - يرفض الحياة بدون دين، أو الدين البعيد عن الحياة، أو توسيع الفجوة بينهما، والمسلمون من أصحاب الوسطية رفضوا تكفير صاحب الكبيرة ولا يخرجونه من الملة، وفي الوقت نفسه لا يرون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ولا

(١) قالوا عن الإسلام، د/ عماد الدين خليل، ص ٢٦٠.

يذهبون إلى أن مرتكب الكبيرة خرج من الإيمان ولم يدخل الكفر، إن منهجهم يُحَتِّم عليهم العمل، ويفوضون أمر مرتكب الكبائر إلى الله - سبحانه وتعالى -، فإن أدخله النار فلن يُؤَبَّد فيها، وتَمَخَّض من منهجهم حسن التعامل مع مذاهب وفرق المسلمين واتجاهاتهم، وابتعدوا عن التكفير، فالمرجئة فتحوا أبواب المعاصي، والخوارج أغلقوا أبواب التوبة، وهم وسط بينهما.

وعلماء السنة وسط – أيضا – في مسألة (صفات الله سبحانه وتعالى)، فلم يذهبوا إلى التجسيم، ولم يَدْعُوا إلى التعطيل، ووسط في (أفعال العباد)، فلا يرون أن الإنسان مجبر على العمل، ولا يزعمون أن الله لا يعلم بها قبل وقوعها، وعلمه سابق لا سائق، فهي من مخلوقاته، ولكنها من الأعمال الإرادية، إنهم اختاروا وعملوا فتم محسابتهم على اختيارهم وعملهم، فالإنسان مسير فيما لا يعلم مخير فيما يعلم، وهم وسط بين من جعلوا الخلق خالقين مع الله - جل وعلا - ومن يرى أن الإنسان كالآلة لا قرار له ولا تفكير ولا نية ولا اختيار، وموقفهم الوسطي أنقذ الأمة من سلبية الإنسان ومن أن يتجاوز حدوده، وهم وسط في نظرتهم للأنبياء والرسل، فلا يدعونهم من دون الله أو يعتقدون فيهم صفات الألوهية، وفي الوقت نفسه لا يستهينون بمقامهم ويجعلون هديهم وقولهم كسائر البشر، فهم يجمعون بين توقيرهم والاقتداء بهم دون الغلو فيهم وتأليهم.

وعلماء السنة اختاروا الوسطية في (شرائع الدين): فلله سبحانه وتعالى الخلق والأمر، وله أن يفعل ما يشاء، وليس لمخلوق - وإن كان نبيًّا – أن يُشَرِّع أو يبِّدل أو يخفي ما شرعه الله، والمسلم ملزم بالبراءة والإحسان، فلا يضيع

الدين باسم التسامح، أو بنفر من الدين باسم البراءة، ولا أن تصبح البراءة سلوكاً سيّئاً، وتصرفاً يصرف الناس عن دين الله[1].

إنهم في وفاق تام في التعامل مع النصوص، بعيدون عن الأهواء، وفي حذر تام من أن يضربوا النصوص بعضها ببعض، فالوسطية آلية فاعلة، أبعدت الأمة – في مجملها – عن الغلو والمجون، وهيّأتهم للبقاء، ويسرت لهم القبول، والسير في دروب الحياة المتباينة.

والوسطية ليست قوالب وزوايا وأسواراً طويلة، إنها فضاء بيئة الإسلام، وتوازن بين أطراف وقضايا تلم أطرافها قواعد وتوجيهات. وطريق يؤدي إلى الاستفادة من الروابط الإسلامية والإنسانية، وإلى نبذ العنف والتعصب، والإيمان بتكريم البشر.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]،

والعدل مع الناس جميعا...

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

فما من جريمة حذر منها الإسلام كالظلم والاستبداد والإلحاد والشرك

---

(١) التسامح في الإسلام، أ. د/ زيد الزيد، ص ٢٩.

والفواحش والفسوق والخبائث وغيرها إلا مفاهيم استولى عليها الإفراط أو التفريط، والقرآن الكريم يقدِّم نموذجاً يُعَرِّي الطغيان من خلال فرعون، حيث علا في الأرض، وأسرف، واستخفّ بشعبه، وجعل أفكارهم وعقائدهم مربوطة بإذنه، فكانت نهايته - وأتباعه - معروفة للقاصي والدّاني.

فالوسطية خير وعدل، وإنها موجودة وقادمة، ومكانها واضح، والمستقبل لها، وحينما يتنازع الماء والنار يكون النصر حليف الماء، وللأمة دورها، حيث تشد على حكامها وعلمائها ومفكريها ليتلمسوا المنهجية الحقة، مدركة - في مجملها - أبعاد القضايا المصيرية، ودورها، وخطرها، متجهة إلى تحقيق التوازن الذي يحفظ للأحكام وجودها، وللأطراف حقوقها، عالمة أن حسم كل الخلافات الفقهية والمسائل الاجتهادية من المستحيلات.

الوسطية - في ملامحها وأعماقها - هي الكتاب والسنة والعمل بهما، والالتزام بالنصوص، والتمسك بظاهرها إلا إذا جاء دليل جَلِيٌّ يخبر عن مقصودها، أما التفريط في تأويلها أو الإفراط في تحكُّم العقل فيها فهو ظلم للدين والأمة، والإسلام ليس يميناً ويسارًا، وليس فيه يمين ويسار، كله وسط، ولكن من المسلمين من يرى هذا أو ذاك، أو يسلك دروباً فيها تَنَطُّع أو إفراط، وتتباين إدراكات المسلم من إسلامه، فمنهم أصحاب الاحترازات يقابلهم أصحاب الرخص، ومنهم من يغوص على المعاني ومنهم من يقف عند الظاهر، وتعدد المذاهب تكامل لا تنافر، ويكون جمالها في قوتها وتسامحها وإخلاص النية في أصحابها، والتزامهم بشروط الحوار الإسلامي، وبعد ذلك تأتي الفوائد المذهبية في دعم الوسطية لأن (الأمة الوسط تُصَدّق بالحق الموجود،

وتؤمن بالإله الواحد المعبود، وبعبادته ودعائه وذكره وأسمائه وكلامه تدفع شياطين الإنس والجن)[1] فالوسطية تضبط الطرفين، وتجمع بين القهر والإحسان، وبين الرهبة والرغبة، والنبي عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة والملحمة، والضحوك الشجاع، وأمته منحها الله الشدة والرحمة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والمؤمنون المحبوبون من الله جمعوا بين صفتي العزة والذلة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والوسطية تربط بين الفكر والفتوى: فالفكر روح وتفاعل، ومحبة وتعليل، وحراك ثقافي، وصياغة اجتماعية، وقوة مضادة، يبني الهوية، ويفكك الريح القادمة، وينشط العقل، ويستشرف المستقبل.

والفتوى حدود ومعالم، والتزام وعمل، وحضور ديني، وطاعة لله تعالى، وتصديق لرسوله ﷺ، وامتزاج بالقرآن الكريم، وعمل بالسنة المطهرة.

والمجتمعات الإسلامية بحاجة ماسة إليهما – الفتوى والفكر – فهما أنوار تضيء باطن المجتمعات وظاهرها، وتُنَقّيها من التقاليد السيئة، ومن الأفكار الهدامة، ومن الحيرة على الطريق، وأمام الهدف، وتسهم في تحريكها، وتثبيت خطاها على طريق التقدم والبناء والعطاء المتميز.

والوسطية سياج مهم للرد على من يزعم أن الإسلام ينتمي إلى الماضي،

---

(١) مجموعة فتاوى ابن تيمية، جـ ١٩، ص ٦٢.

ويدعو إلى القتل، ويصادر الآخر، ويتعارض مع العقل، وهذه المطاعن أخذت تنمو وتتكثف من خلال شخصيات مريضة أو جاهلة، أو بواسطة مؤتمرات مشبوهة يرعاها الغرب، ويتحدث فيها تلاميذهم من أبناء المسلمين، وأحياناً تأخذ مساراً آخر، حيث تدعو أصوات مشبوهة إلى "الإسلام الليبرالي"، وإلى الزواج المثلي، وإلى حرية وتحرير الجسد، وإلى وحدة الأديان، والأحداث العالمية المعاصرة كشفت أنه لا وسطية في السياسة الأمريكية، ولكن يوجد شيء من الوسطية في الفكر الأمريكي يكاد يختفي أمام التسلط والظلم، ولذا لن تستطيع نشر الاعتدال أو رعايته وإن قالت أو سَعَتْ أو فَرَضَت.

والوسطية تحقق الأخوة بين المسلمين، والعمل بالآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهي تحيي الأواصر، وتخفف الخصومات، وتفصل بين الانحراف وصاحبه، وتقدم حسن الظن، ولا تعين الشيطان على مسلم، وتقبل الأعذار، وتختزل التهم، وتعتذر عن التقصير، وتبتعد عن التصنيف وترجو السلامة، وتستر العورة.

إن أخوة المسلمين درع وقوة، وكل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام، يلتقون في التوحيد وفي الصلاة والأعياد والحج والصيام، وأسوتهم – جميعاً – نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام، ومرجعيتهم الكتاب والسنة، وميادين لقاءاتهم أكبر وأوسع من أن تفتتها بعض الاختلافات الجزئية، فهي أخوة إسلامية معقودة بروابط الإيمان، تستضيء بما رواه الإمام أحمد رحمه الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(من ذبَّ عن لحم أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار)**. وما رواه الترمذي – رحمه الله – أن رسول الله ﷺ قال من

على المنبر: (**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم يَتَّبِعُ الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**).

والوسطية طريق المسلم إلى «الخيرية» إذا ما تَضَلَّعَ مفهومها وتطلع إلى آفاقها، من خلال قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالخيرية ليست امتيازاً لعرق من الأعراق، وليست صفة لشعب من الشعوب، ولكنها وسام لمن يؤدي الأمانة (أمانة «الأمر» و«النهي»)، ولمن يحقق أسبابها، فهي تكليف وتشريف.

الوسطية رؤية عقلية نقلية، ومنهج عمل ونقاء، تستمد من الماضي بداياتها لكي تسير بسلام بين التوجيهات والصدامات نحو العالمية والقيم، واحترام إنسانية الإنسان، والتوافق الاجتماعي، والعدالة الحقة، والواقعية المتزنة، والريادة المنهجية.

الوسطية ثقافة وسلوك، وفعل بشري، وليست حالة فطرية مجردة من الإرادة، تمتاز بأنها وسيلة دعوة للإسلام وسلاح دفاع عنه.

الوسطية مفهوم إنساني شامل تحيط بالإنسان، وتأخذ بيده، وليست محصورة في وسط بين طرفين، أنها ترتقي إلى السماء، مصدر روحه، وتعطيه شيئا من مادة جسمه الأرضية.

الوسطية بأبعادها وزواياها الإسلامية الصحيحة هي خطوة حرة عميقة ضد القطب الواحد، وأمام العولمة، وفي مواجهة الإرهاب.

الوسطية شجرة طيبة لا تنمو في ظل بيئات تحتكر الحق أو تستبدّ بالرأي.

الوسطية مصطلح ممتدّ ومتجذر أعطاه الإسلام بُعد ديني عبادي، وإلا فهو يدخل في علوم المنطق والسياسة والفلسفة، ويوجد في علم الاجتماع من خلال «التعدد» و«العقد الاجتماعي»، وفي الجانب الصحي، كتب/ أبو حيان التوحيدي (أن لكل إنسان اعتدالاً خاصاً به بين الحرارة والرطوبة، والبرودة واليبوسة، فإذا انحرف عن ذلك الاعتدال إلى أحد الأطراف كان مرضه أو هلاكه).

والوسطية رسالة إنسانية تخدم كل البشر، وتيسر أمر التعايش والتعارف بينهم، وتحقق:

- إنسانية الإنسان.
- العدل في الأرض.
- المحافظة على البيئة.
- خدمتها للأفراد والمجتمعات والشعوب والدول دون غمط أيّ طرف، أو التنازل عن أسس الإسلام وقواعده.

والوسطية مفتاح الحوار المثمر، والتقارب البناء، والدعوة المنتجة، والإصلاح العام، والإمساك بالثوابت والمتغيرات في وقت واحد، فهي ليست رخص دينية أو استسلام للواقع، أو تغريب للمجتمع، أو تقليد للآخر، أو علامة الضعف والعجز.

وتحقيقها لما سبق مؤشر على قوة مرتكزاتها، وتَجَذُّر معالمها، وكونها أوتاداً راسخةً في عمل المنهج الإسلامي، بحيث نلمسها في كل احتياجات الإنسان الواجبة والمباحة، وفي حكمة التحريم والكراهية، وفي حضورها أثناء

الضروريات.

فالوسطية ليست محصورة في التشريعات التي تم ذكرها فيها، ولكنها تتجاوزها إلى شمولية مُنبثة بين: -

- الروحية والمادية.
- الفرد والمجتمع.
- المثالية والواقعية.

ومصطلحات الإسلام ومفرداته، وواجباته وأركانه، وأحكامه وعفوه كلها في إطار تفاعلي واحد، متناسقة نابضة، متكاملة، وتسليط الأضواء على وسطيتها يستدعي رؤية موقعها ومصدرها، وتنوير القرآن الكريم والسنة النبوية لها، وملامحها البارزة في الإصلاح والثقافة، ومعالمها، واستشراف مستقبلها.

الوسطية... الموقع والمصدر

من أجمل المصطلحات المعاصرة وأكثرها إغراء مصطلح [الوسطية]، كل التيارات والاتجاهات والمذاهب والطوائف تدعي الانتماء إليه، لأنه يعانق الفكر، ويخدم الواقع، ويهز المشاعر، ويأسر أرباب الرأي، ومصطلح «الوسطية الإسلامية» أخذ أبعاد مستوردة، وأخرى تقليدية، وثالثة شرعية، وابتلي بالتنوع والتشعب حتى أصبح وسطيات، ثم تحول إلى حركات واتجاهات ومدارس، وأستقل– في نظر البعض – ليوازي العقلانية والعصرانية والتنويرية، مع غياب الحدود بينها.

وتواجده في مجمل الأحكام الشرعية من الثوابت التي لا تحتاج إلى أدلة، وهو سر امتداد الإسلام والمسلمين في أرض الله الواسعة، وغيابه أوجد حركة التراجعات التي لا نزال ندفع ثمنها حتى الآن.

الوسطية ضبطت الاختلافات بين المذاهب لكيلا تخرج من دائرة (السنة والجماعة)، وربطت بين السَّلف والخلف، وهي آلية اختيار أحكام شرعية مناسبة للواقع تُدْحَرُ دعاة تبديلها أو تجديدها، ومنهج لا يحدّ على التجسيم ولا يدفع إلى التعطيل لمن أراد تنزيه الله سبحانه وتعالى، يأخذ بيد المسلم إلى الإيمان المجمل والمفصل بالله بعد استقرار الإسلام في القلوب استقراراً يصد غوائل الشرك، وأسلوب ينظم عشرات المشاريع الحوارية مع أصحاب الحضارات والأديان والطوائف دون ثلم ثوابت الإسلام، وتمييع عزة المسلمين.

إن جمال مصطلح "الوسطية" وأهميته وإلحاح المسلمين وغيرهم عليه، ودعوتهم له وادعاءهم العيش فيه، يُحَتِّم ذلك – وغيره – على تعريفه ومعرفة

أسسه، وضوابطه، ومعالمه التي تشير إلى حقيقته، خاصة أن محاولة الاستيلاء عليه تسير على قدم وساق... وعلاماتها ما يلي:

[١] تحول الوسطية إلى مصطلح ذي دلالات متعددة من الصعوبة الإمساك به؛ لتجاذب عدة أطراف له، بل وصل الحال إلى إضافة متعلقات له، كـ (الوسطية المستنيرة) و(الوسطية المعاصرة) و(الإسلام الأمريكي)!

[٢] قيام فئة – ما – أو سلطة ما بتوظيف (الوسطية) لكي تحقق مصالحها، أو ترد عنها – بواسطتها – غوائل الزمن، وضغط الأطراف، والادعاء بما ليس فيها.

[٣] تحويلها إلى مسكن مؤقت لعلاج قضايا آنيّة، وما قبلها أو بعدها فعليه السلام.

[٤] تبديل معناها إلى معاني اللين والبساطة والتنازلات، وشيء من الفراغ العقدي، تخدم الراغبين في الاستسلام بثمن بخس - من زاوية -، والزاوية الأخرى، استعمالها كأسلوب للهرب من ضغط الطرفين بمشتقات سياسية وأمنية، يمثلها ما يسمى بـ (الطريق الثالث).

معنى الوسطية:

ما التعريف الجامع المانع للوسطية؟

حتى لا تكون وسطية اللين والتخاذل أو وسطية يتطلع إليها الغرب، أو وسطية يدندن حولها الحكام، أو يدعيها من المسلمين من لا يعرف الإسلام

الوسط والوسطية نقطة تفصل بين طرفين، وتحمل معنى (بين) و(النصف) و(العدل) و(الخيار) و(الفضل)، ووسط القلادة أجود جواهرها، ويخرج منها

(الوسيط): المتوسط بين الخصمين، و(التوسيط): جعل الشيء في الوسط، و(التوسط) من يكون بين الناس في وساطة، ومعناها المادي مطابق لمعناها المعنوي، إذا تحقق فيها (العدل) و(البينية) وهما شرطان لها لكي تحمل معنى المكانة والحسن والقصد والخير[1]، والوسطية الحقة يشدها إلى الإسلام دائرتان:

(أ) أنها شريعة الله سبحانه وتعالى.

(ب) أنها سلوك لكل المسلمين.

أسس الوسطية:

من التعريف يمكن استنباط أسس الوسطية، ومن أهم معالمها:

(أ) الخيرية:

وهي صفة لازمة في الأمة الإسلامية إن هي آمنت بالله سبحانه وتعالى، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والصفتان للأمة في الآية جعلت الأمة الإسلامية مُحَصَّنة – في مجملها – من الضلالة، مؤمنة بكل الأنبياء والرسل السابقين، دينها دين عالمي، ونبيها – عليه الصلاة والسلام – لجميع الثقلين، ممتدة إلى قيام الساعة.

(ب) العدل:

والعدل أمر إلهي يشمل الجميع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

---

(١) الوسطية في القرآن الكريم، د/ علي الصلابي، ص ١٩.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٨].

فالعدل واجب على الأمة الإسلامية، عدل في الداخل، وعدل مع غير المسلمين، وهو من الحقوق الواجبة لكل الناس في الإسلام، وصفة من صفات الأمة المحمدية يؤكده تقوى الله والخوف منه سبحانه وتعالى، والتاريخ يقدم أمثلة رائعة على التزام المسلمين بالعدل وتطبيقه على أنفسهم، عدل أبعدهم عن المحاباة والعواطف والمصالح والأهواء في أصعب المواقف وأشد الظروف.

(جـ) رفع الحرج:

إن رفع الحرج المؤدي إلى التيسير من معالم الوسطية، ومن أسس التشريع الإسلامي. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥].

والتيسير في الإسلام، وعند المسلمين ينطلق من أوامر الله جل وعلا ونهيه، ولا يحمل في طياته معنى التهاون والتساهل، وهو - أيضا - منهج شامل في الأحكام، ومراعاة القدرة، ويتسع أمام الضروريات.

إن أسس الوسطية في الإسلام أقامت وأحيت روح (التعاون) بين المسلمين، واستفادوا من (التعارف) على غيرهم في إيصال الدعوة إليهم، وعمارة الأرض، والوسطية - أيضا - دفعت المسلم إلى (الحوار) مع المسلم وغير المسلم، من خلال ضوابط وضعها الإسلام؛ بسبب اعترافه بـ (الاختلاف) بين الناس، ورغبته في إيصال الحق إليهم، فالمسلمون حينما حملوا الإسلام في خطواتهم الأولى لم يهدموا المعابد ولم يحاصروا العبّاد، ولم يلغوا أديان وتقاليد

الشعوب أو ثقافتهم أو لغتهم أو ملابسهم حينما حكموهم، وأكبر دليل على ذلك أن الدواوين – سجلات الدولة – لم تزل على حالها في كل إقليم افتتحه المسلمون خلال الخلافة الراشدة، ولم تعرّب إلا في عهد عبد الملك بن مروان، وكذلك العملة المتداولة، لم يزل المسلمون في كل إقليم يتعاملون بعملته طيلة عهد الخلفاء الراشدين ومعاوية ويزيد، ولم تحول عربية إلا في عهد عبد الملك بن مروان، فالإسلام وسط، ولم يلغ غيره، وفي الوقت نفسه لم تضعف هويته المستقلة، وهيمنته على القلوب، والمقارنة بين استعمار الغرب للبلاد الإسلامية وفتوحات المسلمين تؤكد على عدلهم وخيريتهم، وتأصل وسطيتهم التي غرسها فيهم إسلامهم، والتي من ثمارها: التوازن والتيسير والوحدة والموضوعية وتحقيق الأصالة والمعاصرة.

ميزان الوسطية:

ما الضوابط التي من خلالها نعرف أن هذه الوسطية هي وسطية الإسلام؟

القرآن الكريم والسنة النبوية هما مختبر معرفة الوسطية، وميزان الحكم على القضايا والمواضيع، ومنهما نستلم شهادة القبول أو الرفض.

والميزان يصطبغ بالملامح التالية:

[١] الاعتماد على الكليات القرآنية، وهي التي لا تأويل فيها ولا تحتمل التأويل، ولا تغرق فيه، ولا تقع بالشبهة، مع التأكيد على أن القرآن الكريم أعطى العقل السليم مساحات كبيرة فلا يقبل الخرافات والتقاليد السيئة، والشعوذة والسحر.

[٢] رفض إضافة أصل عند طائفة – ما – إلى القرآن الكريم والثابت من السنة النبوية وهو غير موجود كـ:

(أ) استعراض الخوارج مخالفيهم بالسيف.

(ب) الإمامة.

(جـ) نكاح المتعة.

(د) الزعم بالأجر الكبير على سب الصحابة رضي الله عنهم.

(هـ) التبعية المطلقة للشيخ عند الصوفية، والتلقي المباشر من الله.

[٤] مراعاة علوم الاستدلال من الكتاب والسنة، والمبثوثة قواعدها في علوم القرآن، ومصطلح الحديث، وأصول الفقه، واللغة العربية، واتباع القواعد المشهورة في ذلك.

[٤] التراجعات والمراجعات المبنية على الكتاب والسنة، والنقد الذاتي عند كل طائفة واتجاه ومذهب، وهي كثيرة عند «أهل السنة»، وتجاوزوا غيرهم فيها، وتتجلى بعض خطواتها عند ابن تيمية - رحمه الله - في بعض فتاويه.

[٥] الوسطية مبثوثة في جميع القضايا الإسلامية - العقائد والعبادات والمعاملات -، بعيدة عن الانتقائية والجزئية والانتماء المؤقت، والميزان يرفض وسطية مهمتها - فقط - محاربة الإرهاب والتطرف والغلو، وترك، أو دعم المجون والإفراط.

إن وسطية الإسلام تنطلق من المعالم الأساسية له، حيث إنها وسط بين الأديان، ووسط في الحياة، ووسط في التشريع، لتصل إلى أن أهل السنة وسط بين الفرق والطوائف ثم تأتي الوسطيات الأخرى:

- وسطية بين التعطيل والتشبيه في أسماء الله وصفاته.
- وسطية بين الرجاء والخوف.
- وسطية في الإطراء والذم في الرسل والأنبياء والصالحين.

- وسطية بين الوعد والوعيد.
- وسطية بين الجبرية والقدرية.
- وسطية بين التوكل والعمل.
- وسطية بين الغلو والجفاء في الصحابة - رضي الله عنهم -.
- وسطية بين الرُخَصِ والعزائم.
- وسطية بينَ التقليد والاجتهاد.
- وسطية بين الإتراف والابتداع.
- وسطية بين التخذيل والتفجير.
- وسطية بين المادية والروحية.

الوسطية والواقع :

الحداثة المفصولة عن الماضي تضييع للتراث والأصالة، بتر للتاريخ وروح الأمة، والسلفية المقطوعة عن الواقع عزلة وتأخر وهزيمة، وفصل للدين عن الحياة.

ومن المهام الهامة في الأمة الإسلامية إنزال الوسطية على الواقع المعاصر، ويقع إسناد الفعل إلى كل الأطراف المسلمة (الدول، الحكومات، العلماء، الحكام، المفكرين، الدعاة، الصفوة، النخبة، أهل الشورى) كلٌّ فيما يخصه، وكل فيما يطيقه، فنشر «ثقافة الوسطية» من كل الأفراد القادرين، في كل الوسائل المتاحة، من أهم الخطوات، وعلامتها تحقيق العدل والحرية والمساواة من خلال منهج الإسلام، وتشكيل الرؤية الواضحة الداخلية في التعامل مع الطوائف البعيدة عن الغلو: - (السنة والشيعة والصوفية) ومع المذاهب

(المالكية، الشافعية، الأحناف، الحنابلة...)، ومع الاتجاهات (الإخوان، السلف، حزب التحرير، التبليغ...) وفك الاشتباكات الفكرية وتداخل المسميات بين الأصوليين والليبراليين والإسلاميين، لكيلا يكونا غنيمة باردة لأصحاب المصالح الخاصة، فالمجتمعات الإسلامية مهيأة، بل مستعدة لقبول الوسطية، وفي بنيتها الأساسية الشيء الكثير منها، ولديها القابلية لاستقبال البقية منها، يؤكد ذلك النقاط التالية:

(أ) معاناة المجتمعات الإسلامية من البعد العملي المؤثر عن الوسطية - على المستوى النخبوي والرسمي -، والسبب يرجع - في بعضه - إلى الغرب ومنهجه واعتدائه، وإلى الإعلام الغربي، والبعض الآخر نتيجة الأوضاع الإسلامية في عدد من الدول الإسلامية.

(ب) ليس في المجتمعات الإسلامية فرد واحد يزعم أنه غير وسطي، ولكن المشكلة الكبرى تكمن في وضوح الرؤية، وتراوح الوسطية بين عدة أطراف ومواقف مع شيء من التشويه.

(جـ) إن اتزان المجتمعات الإسلامية في مجملها وموقفها من الأديان والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وحياتها الواقعية وتطلعها إلى المثالية، واندماجها - مع حفظ هويتها - في مجتمعات أخرى مؤشر على أن بذرة الوسطية متمكنة في عامة تكتلاتهم، وإن غابت أحياناً عن الأنظار، يقول / بيجي رودريك: «إن تعاليم الإسلام الخُلُقِيَّة تحقق امتزاجاً تاماً بين المثالية والواقعية، فيستطيع الإنسان بفضلها أن يتعرف إلى الله ويصبح ربانياً، بينما يكون منهمكاً في شؤون حياته اليومية»[1].

---

(١) قالوا عن الإسلام، د/ عماد الدين خليل، ص ١٨٤ .

(د) معطيات الثقافة الإسلامية المعاصرة الشعبية، وممارسة كثير من المسلمين بعض سلوكيات الاتزان، وقبولهم له، وتداولهم لأحكامه وأدلته، تقول / جميلة قرار: «ولدت في النمسا، وانتقلت من المسيحية إلى الإسلام، شعرت أنني كمسلمة يمكنني أن أحيا حياة كاملة جديرة بالحياة، وأن الإسلام يجعل المرء يشبع حاجاته الروحية والمادية على حد سواء، في توازن يضمن تطور عقلية ثقافية مبدعة، ويحقق اجتهاداً دائماً لتحسين الوضع المادي للإنسان على أساس من العلاج، لا للإنسان وحده، بل لجميع الخلائق»[1].

فالاتزان حاضر في جميع زوايا الدين الإسلامي ومحاوره، يراها البعيد ويمارسها المؤمن، وتظهر ما بين الفقه والتصور، وبين الولاء والقصد، وبين العلم والعمل، وبين الشرع والقدرة، وبين الحب والبغض. روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عليكم هدياً قصداً – ثلاث مرات – فإنه من يُشَادُّ الدين يغلبه» فالتشدد في الجزئيات والفروع لا يشير إلى العدل والاتزان، ولا يخدم مقاصد الإسلام، والمتخلي عن الوسطية يظلم نفسه ويشوّه دينَه.

الوسطية.. رؤية إصلاحية:

من المستحسن وضع إضاءات تساعد على فهم هذا الموضوع وذلك من خلال:

(أ) الرؤية الشرعية للوسطية.

(ب)الأمة.

(جـ) الإصلاح.

---

(١) قالوا عن الإسلام ، د/ عماد الدين خليل، ص ٢١٠ .

مع التأكيد على أن الوسطية ليست دواءً لكل داء، فلن تلغى الصدام مع الغرب، أو تمحو جميع التهم العشوائية، أو المزاعم بجهل وجمود وعقم الفكر الإسلامي، ولن تُنَقَّى كل الأمة الإسلامية من الفساد، أو تعود بالمسلمين - كل المسلمين - إلى الطريق المستقيم، ولكنها - إن تضلع المجتمع بها - فإنها ستقلل مما سبق، ولن تضع بيد الأعداء المبررات المشبوهة في إيذاء المسلمين وانتقاص الإسلام، وستقلص محاولات المساس به عند تطبيقها امتثالا وتحقيقاً لأمر الله وشرعه، وابتغاء رضاه، وتبرز - عمليًا - مقومات بقائه وازدهاره وتقدمه، وزيادة المؤمنين به، والمتعاطفين معه، وتجمع المسلمين حول المحكم والثابت والمتواتر والصريح منه، عن طريق:

[١] إيقاظ العقل المسلم، وتفعيل دوره الحضاري وإمكانياته الفكرية في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه، بأسلوب عصري وتقنية حديثة.

[٢] إظهار النموذج الإسلامي الحي، من خلال سلوكيات الأفراد وما فيها من همة عالية، وإنسانية واسعة، واعتدال جذاب.

[٣] تغذية النفوس المسلمة بالقراءة والتدبر - وهما من محرضات الإسلام - حتى تصعد الأمة من المعرفة إلى الوعي والإدراك، ثم العمل الممنهج ليكون بيدها - بعد ذلك - زمام الحضارة الشاهدة المتكاملة الواعدة.

[٤] اعتبار الوسطية من أهم حبال التواصل مع المؤيدين من غير المسلمين، وكسب المحايدين منهم، انطلاقًا من أن الوسطية ليس مصطلحًا مستوردًا، بل إنه الإرث الإسلامي الحي، والطريق المناسب في التعامل مع العولمة وتحويلها من عدو إلى وسيلة من وسائل التواصل، بل والدعوة، وجعلها بابا من أبواب عالمية الإسلام، وتمكنه، وتوسعه.

(أ) الرؤية الشرعية للوسطية:

وسط الشيء: ما بين طرفيه ويستعمل الوسط في الفضائل إذا كانت بين الرذائل، فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور، وكذلك سائر الفضائل، والدين الصحيح وسط بين أصحاب البدع وأصحاب الفجور، وفوق التالي ودون الغالي، والأمة الوسط هم (أهل دين محمد ﷺ، وخلفائه على عامة الناس وخاصتهم إلى يوم القيامة)[1] قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

والخطاب موجه لأهل الكتاب إلا أن معناه يعم الخلق جميعًا، وقال جل وعلا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وورد عن النبي ﷺ: **(إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى)** [رواه البزار والحاكم والبيهقي]، وعنه - عليه الصلاة والسلام -: **(ن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)** [رواه البخاري]، (وما خير عليه الصلاة والسلام بين أمرين، أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا) [رواه مسلم]، وعنه ﷺ: **(قولوا بقولكم ولا يستحوذ عليكم الشيطان)**، [وروى الإمام أحمد في مسنده] عن محجن الأسلمي أن الرسول ﷺ قال: **(إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره)** وكان - عليه الصلاة والسلام - يتزوج النساء ويصوم ويفطر ويصلي وينام، وفي الوقت نفسه يحث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ج٢٨، ص ١٩٤.

على قيام الليل، وحذَّر أمته قائلاً: **(إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)** [رواه أحمد وابن ماجه]. حتى محبته - عليه الصلاة والسلام - يجب أن تكون كما أمر عدلاً واتزاناً وشرعاً وحقًّا، فمحبته واجبة، ومن منطلقات الإيمان. روى البخاري أن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)**، وفي الوقت نفسه يروي البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: **(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبدالله ورسوله)**، فالصحابة - رضوان الله عليهم - ومن سار على نهجهم من القرون اللاحقة يُمَثِّلون الأمة الوسط، المنتمية للدين الوسط.

وقد انعكست هذه المعالم والتوجيهات على الجيل الأول من الأمة الإسلامية، فقد رُوي عن علي بن أبي طالب ﷺ قوله: (كن في الناس وسطًا، وامش جانبًا)، وقوله - أيضًا -: (خير هذه الأمة هذا النمط الأوسط، يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي)، وقال سلمان الفارسي ﷺ: (القصد والدوام، فأنت الجواد السابق)، وروي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قوله: (وخير الأمور أوسطها، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها).

وأصبح من مستلزمات المسلم الواعي أن يكره الغلو كما يكره التقصير، وهو في حذر من اتخاذ الغلو دينًا والسب خدينا، أو أن يفرط في التطيّر أو يعوّل على الفأل، وما ذاك إلا لأن الغلو في العبادات أو في ذكر الأولياء، أو في الانتماء للطوائف والفرق والمذاهب والاتجاهات يؤدي إلى تضييق واسع، وإلغاء التسامح والرحمة والعفو، وإفساد الدين.

أما الحاكم المسلم العادل فهو لا يتجاوز دائرة الوسطية، وعقوباته – دائمًا – من ميدان الشريعة منزهة عن الإفراط، وعفوه لا يخرج عن حدود الأحكام، بعيد عن التفريط.

وبنص صريح لا يحتمل التأويل ولا الشبهة يتفضل الله – سبحانه وتعالى – على المسلمين بنعمة الوسطية الحقة، المؤدية إلى خاصية الشهداء على الناس، انطلاقًا من توسطهم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فوسطية المسلم استمدها من دين هو آخر الأديان، امتاز بالتمام والشمول والكمال، دين لم يلغ الفطرة ولا العقل ولا الغرائز، ولكنه قام بتنظيمها وضبطها، فأصبحت – وغيرها – معالم هندسية تتنفس بطريقة سلسلة سليمة وتنطلق من قواعد هادئة جميلة، لا تهمِّش الفرد على حساب الجماعة، ولا تقدم الفرد، وتحفظ للجميع حقوقهم، ولذا لا يجتمعون على ضلالة، وهم الباقون على الفطرة، وأهل العدل.

هذا الدين، دين الإسلام جمع بين الروح والجسد والعقل والقلب والدنيا والآخرة، ولم يأمر بأن تكون اليد مغلولة، ولم يدع إلى بسطها كل البسط، ووضع المسلم بين التوكل والعمل، والرجاء والخوف، والبنين في الحياة الدنيا والباقيات الصالحات في الآخرة، والأمل والزهد، والمال والزكاة، واللذة والألم، والليل والنهار، والغيب والشهادة، والعبادة والحرية، وحسن المآب ومتاع الحياة...

هذه التوازنات الدقيقة الرائعة لن تكون بهذا النجاح والوضوح والعمل الحي لو كانت من عند غير الله، ولن تكون بهذه الخصائص والتفعيل لو لم تكن

نابعة من الإسلام، والمسلمون - ولله الحمد - حولوها في أيامهم المشرقة إلى واقع ملموس، وبالإمكان العمل بها في هذا الزمن.

إن هذا الاختيار الإلهي للمسلم المؤدي إلى الاعتدال والتوسط من نعم الدنيا الدالة إلى نعيم الآخرة، وهو في الوقت نفسه سعادة في الدارين، وغيرها انحراف وجهل وضلال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢].

أما غيرها من السعادات فهي إلى الكذب أو الوهم أو الجهل أقرب، وإن تجاوزت ما سبق فإنها لن تكون دائمة، وستبقى متغلغلة في زوايا الحياة، ممتدة إلى ما بعد الموت، يثاب عليها، منطلقة من النية والجوارح.

ومن أهم خصائص الوسطية:

[١] أن الشريعة الإسلامية لم تأت إلا من أجل تطبيقها على أرض الواقع، ولا يتحقق ذلك - بنسبة عالية - إلا إذا أخذت في حسابها الشريحة الأكبر من الأمم واحتلت المساحات البعيدة عن الغلو والمجون، والتزمت بالوسطية.

[٢] أن عموم مقاصد الشرع الحنيف تصل إلى أهدافها من خلال الوسطية والاعتدال، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أعدل وأوسط.

[٣] أن معاناة البشرية وحروبها وفتنها تنطلق دائمًا من الأطراف.. ولم تكن الشرائح الوسطى والأفكار المقتصدة، ودعاة الرفق والقسط إلا ضحايا للأطراف، ثم هم بعد معاناتهم من التفريط والإفراط، تكون المرجعية لهم، والاستقرار على أيديهم.

[٤] أن الوسطية في الإسلام عقيدة وشريعة، على اعتبار أن عقيدته على الوسطية - كما نص أهل العقائد -، وشريعته مبنية على الوسطية - كما نص أهل الفقه والقواعد والأصول[1] -.

[٥] يجب على المسلم الاستفادة من تجارب الأمم الكافرة فيما ينفعه ويحتاجه، أما علوم المادة - في الغالب - من أسس التقدم الدنيوي، وملك لكل الناس.

ولذا قام الإسلام على الوسطية وتميزت شريعته بالوسطية وأوصى عليه الصلاة والسلام معاذاً وأبا موسى قائلاً: **(يسّرا ولا تعسرا، وبشّرا ولا تنفرا..)** رواه البخاري، وقوله ﷺ: **(إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف)** [رواه البخاري]، وإن كانت الدروب المؤدية إلى الجنة كثيرة فهي من خلال الوسطية أكثر، إن أسباب دخول الجنة أيسر مما يظن أصحاب الغلو، فقد ندخل الجنة بسبب إغاثة محتاج، أو بسبب إطفاء عطش كلب أو قِطٍّ، أو بسبب كلمة، أو بسبب دمعة.

و"الوسطية" صفة يدعيها الكثير من الطوائف والتيارات، وتأتي الإشكالية من تحديد مصدرها الحقيقي، ومن الصدق في التعامل معها، ومن سوء الفهم لمعناها، أو الخلط بين معناها الشرعي واللغوي، فالمنافقون - مثلاً - في منطقة "وسطى" بين الإيمان والكفر.

ووسطية الإسلام تتسم بالخيرية والاعتدال والتسامح، وتقدم للمسلمين جيلاً يدرك واقع الأمة، وينطلق من الجذور ويتفاعل مع الواقع، ولا يعرف الإفراط، ولا يعبث به التفريط، ولا يهمل الكليات، ولا يحترق بالجزئيات.

---

(١) الوسطية والاعتدال وأثرهما على حياة المسلمين .. صالح آل الشيخ.. ص ١٨ .

أما أسباب الغلو فقد تجذر الحديث عنها واتسع، ويمكن إجمال تواجدها وحصر المهم منها وأسبابها بما يلي:

[١] رهبة أعداء الإسلام منه، وخوفهم من حيويته، وقدراته، وامتلاكهم القدرات الإعلامية المؤثرة، التي قلبت الحق إلى باطل، ودعاة الخير إلى محاور الشر.

[٢] ضعف بصيرة بعض المسلمين في حقيقة الدين.

[٣] انشغال شرائح يسيرة من المسلمين بالجزئيات، وإهمال الكليات.

[٤] فساد بعض الحكام في العالم الإسلامي.

[٥] الضعف في تدبر القرآن الكريم.

[٦] الإسراف بالتحريم، أو الإفراط في التحليل وفق الهوى والتشهّي.

[٧] التعلق بالمتشابه[١].

[٨]ظلم الغرب وتجبره، واعتداؤه المعلن على أفغانستان والعراق وغيرها من بلاد المسلمين، ودعمه المادي والمعنوي والعسكري للصهاينة في فلسطين.

(ب) الأمة:

رغم تنوع معنى الأمة وتدرجه، يبقى معناها التقليدي، حيث يحتضن شعوباً وقبائلاً ذات لغات وألوان وسمات مختلفة، وديانة واحدة.

قال الراغب الأصفهاني: «الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها أمم»[١]، ومصطلح الأمة يراد به في هذه الدراسة "أمة الإسلام".

---

(١) الإسلام وقضايا العصر .. د/ محمد موسى نصر .. ص ٣٨.

(١) المفردات في غريب القرآن .. أبو القاسم الأصفهاني .. ص ٣٢.

وروافدها من الأفراد والأسر والمجتمعات والشعوب الإسلامية، إطارها الدين، ومحورها التوحيد، ومسؤولياتها بحجم محيطها، وهي في حالة حركة دائمة، وقد وردت في (٤٤) موضعًا من القرآن الكريم بمعنى الجماعة من الناس، وتنسب الأمة إلى الإسلام (الأمة الإسلامية) وإلى محمد - عليه الصلاة والسلام - (أمة محمد) أو (الأمة المحمدية)، ووردت في مواضع كثيرة من الأحاديث النبوية بصيغ متعددة وبأوصاف وأدعية حميدة، وتحذيرات، منها ما رواه البخاري: «ليكونن من أمتي أقوام يستحِلُّون الحِرَّ والحرير والخمر والمعازف...»، وقوله عليه الصلاة والسلام: (**إن أمتي يدعون يوم القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء...**) رواه الشيخان، وقوله عليه الصلاة والسلام: (**لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**) رواه البخاري، ونسبها عليه الصلاة والسلام إلى نفسه: (**لولا أن أشق على أمتي...**) رواه البخاري، ونسبها إلى اسمه: (**يا أمة محمد ما أحد أغير من الله...**) رواه البخاري ومسلم، ونسبها جبريل - عليه الصلاة والسلام - إليه - ﷺ حينما قال: (**من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة...**) رواه البخاري ومسلم.

وهذه النداءات والصفات شكلت في مجملها ملامح الأمة الإسلامية ودورها، وواجباتها نحو نفسها وغيرها.

وجاء هذا المصطلح في الشعر العربي، وأخذ من الشعر المعاصر مساحات كبيرة، قال الأبيوردي:

أرى أمتي لا يُشْرِعُون إلى العِدا رماحهم، والدين واهي الدعائم

وقال أحمد الكاشف:

لو كنت بين الحادثات مخيرًا لاخترت راحة أمتي وعذابي

وقال أحمد شوقي:

فقل رب وفق للعظائم أمتي وزين لها الأفعال والعزمات

وقال مصطفى الغلاييني:

لعمري ما نمت عن حق أمتي ولا بت إلا متعبًا بثقالها

وتحدثت آيات قرآنية عن أمة الإسلام، وصفًا لها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والمراد أن المسلمين خير أهل دين.

وإخبار عنها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأمة وسطا أي عدلاً بين الأمم فضلاء شهداء عليهم، والوسط منتصف الشيء أو مركز الدائرة، ثم استعير للخصال المحمودة، ومن زاوية "علم الأصول" يرى الرازي والجَصَّاص أن هذه الآية تدل «على صحة الإجماع ولزوم حجته إذا لم يتقدمه خلاف»، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ويتطابق ما سبق مع خصائص "الأمة الإسلامية" المتمثلة فـ: الوسطية، والفضل والاجتماع، والدعوة، والاستخلاف، ومراعاتها للفطرة، ووحدتها في العقيدة والعبادة، ومنطلقاتها الثابتة وأهدافها الواضحة، ومرجعيتها (الكتاب والسنة)، وقدوتها جميعًا رسول الله ﷺ.

والوسطية وصف لها، ولم يطلق على أمة قبلها، ولم تدعيه أمة من الأمم، وليس معناها شامل كل الأمة، ولا يخصّ أمة الجزيرة العربية، أو الأمة العربية[١].

ولا عجب بعد ذلك أن تقدمت على الأمم في الماضي، لأنها تملك خطوط التنظيم، وخطط البناء، والرؤيا الواضحة لليوم والغد، ويعبر عنها العناصر التالية:

[١] أنها تشكلت بتوجيهات ربانية فهي أمة وسط، وخير أمة، والأمة الشاهدة.

[٢] أنها أمة العدل.

[٣] أنها أمة العلم.

[٤] أنها أمة الشورى.

[٥] أنها أمة القيادة المتمثلة بالمنهج الرباني والاختيار الحر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشجاعة، والجهاد والتقوى.

وهي - وإن اعتراها بعض الأمراض وأخلدت إلى الراحة فترة -، وتكاد تكون بعيدة جدا عن مشاريع الإصلاح والثقافة والتعليم، والتربية وتحريك التنمية، بما تمارسه وتغرسه من انتماء لبعض المتأخرين، أو ضيق أفق، أو رهبة وشك في كل جديد ومن كل جديد، إلا أنها باقية ببقاء عناصرها الحية، فجذور الحياة فيها مشتعلة، وبنيتها الداخلية قوية متماسكة، وإمكانية يقظتها واردة في كل لحظة.

---

(١) الوسطية بين النظرية والتطبيق، وجيهة الحارثة، ص ١٥٥ .

الأمة السوية هي التي تدير الدولة، وتوجه السلطة، وتقوم بتأصيل ثوابتها والحفاظ على هويتها، ومراقبة مسيرتها، وهي بتكاملها وفاعليتها تسعى – رغم الظروف – في نشر ثقافتها، وإيضاح دينها، وتذليل سبل المعرفة والعلم لأبنائها، وإبراز حضارتها أمام الأمم الأخرى من غير سيف وقيد، وبدون سلطة وتسلط، ويعبر عنها تفاعل الأمة الإسلامية وحيويتها أمام المجتمعات الفارسية والهندية والأفريقية، حيث أدمج الأسرة بالمجتمع وأدخل القبيلة بالأمة، وشكل روابط عليا تعلو وتوازي روابط عرقية وتقليدية وخصوصيات، وكلها وجدت الاحترام منه، واستظلت في ظل الأمة الواحدة الموحدة.

فالأمة مشروع الإسلام الكبير، والإرادة الحرة المتميزة، والبنية الوحيدة والفريدة للإنسانية الشاملة، والمنهج الحضاري الحي، ووعاء الإمكانيات والاستمرار، وآلية طرد الصفات السيئة، ومنبع التوصيات، والأوامر والنواهي الإسلامية الموجهة للأمة قبل الحكومات، فالعناية بالأمة وأسلمتها وتحريكها وتفعيل طاقاتها على المستوى الفردي والجماعي مقدم على إقامة الدولة وتسخيرها أو محاكمتها أو توظيف وتوصيف وإصلاح مؤسساتها؛ حيث أنها أصل كل ما سبق.

والأمة الإسلامية لا يميزها جنس أو لون أو لغة أو مكان أو زمان، ولكن يوحدها منهج رباني تنطلق منه العقول والقلوب، محوره التقوى، ملتزمة بعباداتها لله وحده، مؤمنة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، متخذة القرآن الكريم والسنة النبوية مصدرًا لجميع خطواتها الجماعية والفردية، في قضاياها العامة والخاصة، ملتزمة بالشورى وحقوق الإنسان والعدل، بعيدة عن

التعصب والاستعباد والإسراف والطغيان والفساد والعنف، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وهي – في مجملها – متسامحة رحيمة هادئة، لم تأخذ بوسائل العنف، ولم تتجه إلى قهر الشعوب، من عناوينها المكتبات والكتب والمدارس، والأمن والاستقرار وعمارة الأرض، و قد (قضت حكمة الله – سبحانه وتعالى – أن تكون مواطن الرسل والأنبياء في منتصف الأرض – وسط – حيث ينطلق الدعاة إلى مختلف الجهات، ويأتي إليها طلاب الهدى من جميع النواحي)[١]، فالأمة لا تُغْني عن الوطن ولا تعارض بينهما وانتساب الإنسان إلى دياره لا يلغي انتماءه إلى قبيلته أو ولاءه لدينه، والأصل المحافظة عليها جميعا.

والسؤال المهم، هل خصائص الأمة الوسط متغلغلة في جذورنا وزوايانا؟ وهل نستحق هذا الوصف الجميل؟

إني على يقين أن الأمة الإسلامية بمجملها هي التربة الوحيدة لـ "بذور الوسطية"، ولكن متطلبات حياتها تحتاج إلى رعاية، ومحافظة عليها، وحمايتها من ملوثات الفكر وغلو الرأي والسلوك، وسهام الجهل، وزلازل الشبهات والشهوات، وإذا حققنا احتياجاتها ظهرت للعالم بيضاء نقية، ونموذجًا حيًّا، ونبراسًا يتطلع إليه كل الشعوب والأمم، فالأمة الوسط «هم شهداء الله في الأرض على خلقه في الحق، وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، جعلنا الله وسائر إخواننا من أتباعهم والمقتدين بهم، وحشرنا في زمرتهم بمنه وفضله»[٢].

---

(١) الأمة الوسط، محمود شاكر، ص ٨.

(٢) مجموعة فتاوى ابن تيمية جـ٢٩، ص٣٨٧.

(جـ) الإصلاح:

ورد مصطلح "الإصلاح" ومشتقاته في القرآن الكريم في أكثر من (٤٥) موضعًا، يضاف إليه ما يقابله من مصطلح "الإفساد" ومشتقاته: كالطغيان والاستبداد والظلم، وحدد دروبها، والمؤثرات المؤدية إليها، والعلامات والعلاج.

ومن المسلم به أن الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، لذا اعتقد المسلمون بأن منطلق الإصلاح يكون من الإسلام، وما يعانونه من تأخر وضعف إنما هو لازمة من لوازم الابتعاد عنه: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٧].

وهذه من المسلّمات، ولكن الإشكاليات تنمو في أثناء الفهم أو لحظة التطبيق أو عند التفاصيل، والمصلح المسلم – في عصرنا – يعيش في تيه واسع لا يرى حدوده نتيجة تراكم الأخطاء من كل الأطراف، وتعدد القواعد والنظريات، والاختلاف حول الجزئيات وترتيب الأولويات، والنتائج الباهرة التي حققها الغرب على المستوى المادي، فتمخض من ذلك كله – وغيره – أسئلة حادة جعلت لكل شريحة إصلاحية راية ومحوراً ومفتياً، ومن تلك الأسئلة:

- هل بالإمكان الملاءمة بين مقتضيات العصر والقيم الإسلامية؟
- ما أفضل السبل للتقريب بين أفراد المجتمع والإسلام؟
- من أين نبدأ؟ العقيدة؟ التربية؟ الفضائل؟ السياسة؟ التقنية؟ الاقتصاد؟

- وماذا نعالج؟ الفساد؟ نظام الحكم؟ تفعيل المجتمع؟ البناء الداخلي؟ الدفاع الخارجي؟

- وأي درب نسلكه ؟ السلفي ؟ التوفيقي ؟ الانتقائي ؟ القومي؟

فالحركة والتغيير في المجتمعات الإسلامية لازمة من لوازم وجودها، وعنوان حياتها، فإن كانت الحركة إلى الخلف ورفض الواقع فهي "إفساد" وإن اتجهت إلى الأمام على هدى القرآن فهي "إصلاح"، والأمام والخلف في ميزان الإسلام لهما شروطهما ورجالهما ومحركاتهما، فالشهوة والترف والمنكر والجهل من عجلات التخلف، والإيمان والتفكر والعمل والمعروف من مطايا التقدم، وعلى المسلمين - وخاصة أهل الوسطية - أن يفعّلوا "قوة الإسلام" فهي مؤهلة لقيادة العالم، والوقت مناسب، وخطواتها في هذا المضمار ثمار يانعة للمسلمين وغيرهم، والوسطية بيدها الكثير من الإصلاح السياسي والديني والاجتماعي دون أن يعلق بهذا المشروع توتر أو صدام أو تخوين.

إن الأمة الإسلامية موجودة على أرض الواقع، ودينها يحرم عليها الانفصال عنه، ولكنها ذات أنماط متعددة واختلافات عديدة، إنها مجتمعات إسلامية وشعوب إسلامية، أما كونها "أمة" فهو مصطلح لغوي مع بقية يسيرة من الدين والتاريخ والعواطف الجياشة، ومن هنا تأتي الواجبات تتلوها الواجبات، وعلى العلماء والمفكرين والسياسيين الإسلاميين ترميم مصطلح (الأمة) وإنزاله على أرض الواقع؛ ليكون قوة فاعلة في جميع الميادين، وخيراً وبركة على الأمة الإسلامية خاصة، وعلى جميع الأمم عامة.

إن الأمة الإسلامية - رغم عوادي الزمن - ما زالت بيدها الكثير من خيوط دينها، خيوط الإيمان والعبادات، ومحبة الرسول ﷺ، واحترام القرآن الكريم

وحفظه، وتقدير العلماء، وقد استطاعت أن تقاوم الاستعمار وتحقق النصر، وترفض الظلم – بعد ذلك – والفساد، وأصبح دينها عاملاً فاعلاً ومؤثرًا في تحركها لتحقيق حقوقها، رغم أنها متجزئة إلى دول وطوائف، ومذاهب واتجاهات وعشائر، وتعاني من التبعية والاضطهاد والتجاوزات، إضافة إلى تقسيمات قطرية وترتيبات بدائية، ومسافات تضيق وتتسع بين السلطات والشعوب.

لقد أضحى مصطلح "الإصلاح" في هذا العصر حديث الحاكم وأمنية المحكوم، وميدان المقالات ومحور الندوات، وسلاح القوى ومسكّناً للعَجَزةِ الاتكاليين.

والإصلاح يتعانق مع المسلم الحق انطلاقًا من مصادر التلقي لديه، وتنمو سمة الإصلاح المنْتِج حتى تكون ديدنًا لجميع المجتمعات الإسلامية، والحث عليه متواتر في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وعلى جميع المستويات، فعلى مستوى الفرد جاء في القرآن المجيد:

[١] ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].

[٢] ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٣٩].

[٣] ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [هود: ٨٨].

وعلى مستوى المجتمعات:

[١] ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١].

[٢] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

[٣] ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٦٠].

فالمصلح في توجيهات مصادر التلقي يحتاج إلى النية السليمة الصحيحة الخالصة والصواب في الإصلاح، والصبر والعلم والرفق، والتمييز بين الحق والباطل، والقدرة على اختيار الحق، والدعوة إليه، وسوف ينال الأجر الكبير في الدنيا والآخرة إن هو قام بالمهمة حسب المواصفات والمقاييس الإسلامية - وإن لم يعانقه النجاح - ولكن عليه أن يحمل همّ العلم، ويعمل، ويؤمّن زادًا من الإيمان في قمته الدعاء، وزادًا من العلم في أعلاه العطاء، وزادًا من الالتزام تاجُه القدوة، وزادًا من القيم محوره الصبر والرفق، ومن المميزات في هذا الموضوع أن المصدرين - الكتاب والسنة -، لا تهمش العقبات التي تعيق العمل نحو الوسطية، بل تفصلها وتحدد الخصوم، وتشعر المصلح - بصراحة - أن الطريق طويل والمزالق كثيرة، والخصوم يتربصون به في كل منعطف ومنحدر، وبسبب ذلك كان الثمن الجنة، وعليه أن يستحضر الأصول والعقل والمصلحة العامة في خطواته، ويستعد في دفع الثمن.

وفي بعض الدروب، ومن خلال بعض الأفراد، يكون الإصلاح واجباً، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

وروى الإمام أحمد والترمذي عنه عليه الصلاة والسلام «والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهوَن عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوسع مما نظن وأكبر مما نرى، فالفساد منكر، والإصلاح معروف، ولا شك أن الطغيان السياسي خروجاً عن الوسطية، ويؤكده دوافعه الداخلية: كالتكبر، والغرور، والاستبداد بالرأي، وهوى النفس، والحرص على الملك، والشعور

بالاستغناء عن الآخرين، ودوافعه الخارجية: كقابلية الرعية للظلم، وتملق البطانة ونفاقها[1]، والعبث بالمعلومات أو إخفاءها، يضاف إليه أن من مرادفات الطغيان: الإسراف والعلو والاستكبار والتجبر والعتو والظلم... وكلها متنافرة مع الوسطية، كما أن البعد عن الاتزان يدخل المسائل الفقهية ميدان العقائد، ويجعل بعض قضايا الخلاف في سلم الثوابت، وينزل الجزئيات في دائرة الأولويات، ومن هنا تولد التشققات.

(١) الطغيان السياسي ، د/ عبد الرحمن اسبينداري ، ص ١١٧ .

الوسطية في القرآن الكريم والسنة النبوية

إن من يسير على ضوء القرآن الكريم لا بد أن يكون وسطًا في جميع أحواله، متزنًا في سلوكياته، معتدلاً في كل خطواته، وقد أخبر ووصف الله - سبحانه وتعالى - نتائج هذه التربية في القرآن المجيد: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣].

والأطراف لا يكونون شهداء، ولا تقبل شهادتهم، فالأمة الإسلامية في مجملها وسط في الدين، نأوا بأنفسهم عن الغلو، وأبعدوها عن التقصير، ومن مرادفات الوسط (الخيار)، و(الجود)، و(الشرف)، و(العدل)[١]، وحقيقة الأمر أن هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى عليه السلام، ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم[٢]، والوسط وسط القوم، وتوسّطهم أي صار في وسطهم ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات : ٥] أي توسطن جمع العدو، و﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم : ٢٨]، أي أقصدهم إلى الحق والعدل، و﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة : ٨٩] يعني أن إطعام المساكين يكون من وسط ما يعيش به الناس، لا من أعلاه، ولا من أدناه[٣].

والوسطية وتأكيدها، والدعوة إليها جاءت بالقرآن الكريم على عدة قوالب:

---

(١) تفسير القرآن الكريم ... ابن كثير ... ص ٢ و ٢٠٢ .

(٢) فتح القدير .. محمد الشوكاني .. ص ٩٩ .

(٣) الترجمان والدليل الآيات التنزيل .. المختار الشنقيطي ، ص ٨٨٤ .

(أ) ذكر الطرفين والوسط :

قال تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ – ٧].

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٥٣].

(ب) ذكر طرف ووسط :

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥].

وقال تعالى : ﴿ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٢٧].

وقوله جل وعلا : ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩].

وقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

(جـ) ذكر الوسط :

قال تعالى : ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢].

وقوله جل وعلا : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة : ٨٣].

وقال سبحانه : ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ [المجادلة : ١١].

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١].

(د) ذكر طرف واحد :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [محمد : ٣٨].

وقوله سبحانه : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١].

وقوله جل وعلا : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٥١].

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ [الإسراء : ٢٦ — ٢٧].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧].

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ [الحج : ١١]، على طرف من دينه ليس متوسطاً ولا متمكنا.

(هـ) ذكر الطرفين :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣].

وقال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء : ١٧١].

والنصوص كثيرة ، وفيها المحكم والمتشابه ، والواضح والخفي ، ونجد الدعوة إلى الوسطية في الكثير من آيات الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، وتتضح أهمية الوسطية في آيات كثيرة تتحدث عن العبادات

والأخلاق والتشريع في القرآن الكريم[1]، كما أن ما ينافي الوسطية كالغلو والجفاء والحرج والعسر حذر القرآن العزيز منها، وزكى ما يتفق معها ويؤيدها كالاستقامة والخيرية والعدل واليسر.

قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى : ٨].

ومن أبواب الامتحان والابتلاء واختلاط الإيمان بالعقل أن القرآن الكريم لو كان كله مُحكماً لما تراوح المسلم بين الرخص والعزائم، ولما كان للتدبر عمل فيه، ولما كا ن للوسطية الخير، وفيها الأجر.

أما الوسطية في السنة النبوية المطهرة فهي امتداد لما للوسطية من مَنْزِلَةٍ في القرآن الكريم، وتشكل في المكانين حقيقة ثابتة على أهمية الوسطية، ووجوب لزومها، والأحاديث المروية عن الرسول ﷺ كثيرة ومتنوعة، منها:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، وقاربوا وبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)** رواه البخاري .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **(إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)** رواه ابن ماجه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: **(هلك المتنطعون)** قالها ثلاثًا، رواه مسلم.

---

(١) الوسطية في القرآن الكريم ، د/ علي الصلابي ، (القسم الثاني من الكتاب)

وروى الإمام أحمد - رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال: **(اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلوا فيه)** رواه الإمام أحمد.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه من حديث: **(ثلاثة رهط)** أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال: **(إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)** رواه مسلم، والأحاديث النبوية عن الاعتدال كثيرة، وغير المباشر أكثر، ومنها ما رواه مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر)**. وقوله عليه الصلاة والسلام: **(لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال)** متفق عليه، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: **(ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه)**. وقال معاوية بن قرة رحمه الله: (من يدلني على رجل بكاء بالليل بسّام بالنهار؟) وروي عن الحسن رحمه الله: (السُّنَّةُ - والذي لا إله إلا هو - بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا).

وأقوال الرسول ﷺ، وإقراره، وعمله، واقتداء الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين رحمهم الله به تَصُبُّ في دائرة الاعتدال والوسطية والقصد، وتحقق ما يلي:

[١] الخير للمسلم، والتيسير عليه، وحفظ دينه من أجل أن «لا يقصر فيما أمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه»[١]، والدعوة إلى "اليسر ورفع الحرج" لا يحتاج إلى تذكير أو تأكيد، واليسر: اللينَ والانقياد، وهو ضد العسر، والحرج: كل ما أدى إلى مشقة زائدة في البدن والنفس أو المال حالاً أو مآلاً.

[٢] أن نهي الرسول ﷺ عن الغلو في جزئية من الدين إنما تشمل الدين كله، لما ورد من نصوص عامة، ولما جاء من نهي عن الغلو في أجزاء كثيرة أخرى، فإن نهيه عليه الصلاة والسلام عام في جميع أنواع الغلو سواء في الاعتقادات والأعمال[١].

[٣] إن من تشدد وتعمق في الأعمال الدينية وترك الرفق فمآله العجز والانقطاع؛ لقول الرسول ﷺ: **(إن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى)** وفي الحديث نفسه: **(إن الدين متين فأوغل فيه برفق)**، رواه البزار والحاكم والبيهقي.

[٤] إن الوسطية تُحيي الصفات الفاعلة في الإسلام وتلزم، المسلم بممارستها في سلوكه كـ"الخيرية" و"التسامح" و"التعارف"، و"الحوار"، و"العدل" وهي – وغيرها – لا يمكن أن ترى أو تلمس بخصائصها وثمارها إن لم تكن صادرة من مسلم متزن وسَطِيٍّ.

فالرسول ﷺ تكاملت في شخصيته معالم التوازن، فلم يكن – عليه الصلاة والسلام – بالعبوس ولا الضحاك، ولا المقتر ولا المسرف، وجمع ما بين الأب والزوج وقيادة الجيش، والمعلم والعابد والمربي، ومن هديه ﷺ في

---

(١) المحجة في سير الدلجة، ابن رجب، ص ٥١.

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٢٧٥.

التعامل أنه لا يأخذ كرائم الأموال في الزكاة بل وسط المال، وإن «أصول الشريعة تفرق في جميع مواردها بين القادر والعاجز، والمفرط والمعتدي، ومن ليس بمفرط ولا معتد، والتفريق بينهما أصل عظيم معتمد، هو الوسط الذي عليه الأمة الوسط، وبه يظهر العدل بين القولين المتباينين» ويضيف ابن تيمية رحمه الله: «وقد تأملت ما شاء الله من المسائل التي يتباين فيه النزاع نفيًا وإثباتاً حتى تصير مشابهة لمسائل الأهواء، وما يتعصب له الطوائف من الأقوال، كمسائل الطرائق المذكورة في الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي وبين الأئمة الأربعة، وغير هذه المسائل، فوجدت كثيراً منها يعود الصواب فيها إلى الوسط»[1].

وإن من يتدبر آيات القرآن الكريم وتوجيهات الأحاديث الشريفة يجد أنها تضع الإنسان في موقع وسطيّ متميز من الحياة، وفي خطوط متوازنة مع ما حوله ومع نفسه ومع خالقه، والمصدران – الكتاب والسنة – في حركة دائمة من أجل تهذيب المسلمين، واعتدالهم وبناء مستقبلهم في ضوء السنن الإلهية، حيث تعدو بهم إلى المقصد الأول لجميع الأديان السماوية ألا وهو: "التوحيد الذي فيه صلاح الدنيا وسعادة الآخرة، وتحملهم – برفق ولين – على جناحين "روحي ومادي" لا يطغى أحدهما على الآخر، فالوسطية اعتدال، وقريبة إلى النفوس، وحولها تلتقى الآراء وأهل العقول، ،و من ينظر – مثلا – إلى الحقوق في الإسلام يجدها متعددة ومرتبة وواضحة، ولكل دائرة نصيبها من الأهمية والثواب، فحقوق الله سبحانه وتعالى وحقوق الرسول ﷺ وحقوق

---

(١) مجموعة فتاوى ابن تيمية، جـ ٢١، ص ١٤١ .

النفس والوالدين والأقارب والجيران، وحقوق المجتمع والإنسان، وغيرها، يستند تحقيقها وعلاقاتها فيما بينها على الوسطية والاعتدال في الأمر والعمل، «فالوسطية ليست اعتذارية ولا إصلاحية، وقد تكون بالضرورة تغييرية، وعلى هذا، فإن الوسطية ليست مرحلية، وإنما هي مطلوبة في كل حين، ومع كل جيل، فهي لبّ الدين وجوهره»[٢].

ودعوة الإسلام إلى الوسطية ليس في دروب العبادة والدعوة والأحكام فقط، ولكنها ممتدة إلى المشاعر والغرائز والعواطف، وإلى جوارح الجسم كالسمع والبصر والكلام، وإلى حجاته كالنوم والطعام واللباس، ومن بديهيات الحياة أن المسرف في راحة بدنه مقصر في عمله، والمبالغ في عبادته يظلم من يعول.

---

(٢) الوسطية بين النظير الوتطبيق ، د/ عز الدين موسى ، ص ١٦٣ .

الوسطية.. رؤية ثقافية

إن الثقافة في الكثير من تعريفاتها، وأبعادها وقصصها، وأمثالها، وحكمها، تدعم الوسطية، وتقود التيارات الفكرية إلى التعايش والحوار، ونجد أثر ذلك واضحاً كل الوضوح في علماء مثقفين، أو في علماء سبقت مراحلهم العلمية مراحل أدبية ثقافية، لطفت عباراتهم، ووسعت أفقهم، وجعلتهم أرحب صدراً وأسطع ابتسامة، وأكثر قبولاً من أولئك الذين عاشوا في قالب واحد، وكأنهم جزيرة نائية لا يعرفها أحد ولا تعرف أحداً، وما أحوج هؤلاء إلى معرفة ميادين الحياة، والعيش برهة في تنوعاتها، والتقاط المفيد من حكم الشعوب وتجاربها، وتصور الحال قبل الحكم.

والثقافة الإسلامية العربية مثقلة بالعبر والمواقف التي تحذر من الأطراف، وتدعو إلى الاعتدال، وهي في مجموعها الكلي، ومؤشراتها، تنطلق من حيث نعلم أو لا نعلم من ثقافة إسلامية متغلغلة في الأمة، ومن ذلك ما ترويه كتب التراث من الطرائف المستهجنة في الغلو والمجون أن رجلاً سُرِقت نعاله فلم يشتر نعلاً حتى مات، وقال معللاً: أكره أن أتخذ نعلاً فلعل رجلاً يسرقها فيأثم بسببي.

ودخل رجل على موسى بن عمران عليه السلام فقال: أفطرت البارحة على رغيف وزيتونة ونصف أو زيتونة وثلث... فقال أحد الحاضرين: «إن من الورع ما يمقته الله».

وطلب رجل من عبد الله بن سعد أن يدله على شيء إذا أكله أمرضه؛ «لأنه استبطأ العلة وأحب أن يعتل فيؤجر»!!، ولو قال: «عافيتك أوسع لي» لكان خيراً له.

وقيل: إن عمر بن الخطاب قال لرجل: خذ الكيس. فقال: آخذ الكيس والخيط ؟ فقال عمر: دع الكيس.

ومن الغلو قول أبي نواس:

وأَخَفْتَ أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النُّطَفُ التي لم تخلق

وقول البحتري:

ولو أن مشتاقًا تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر

ومن أراد المزيد من غلو الشعراء ففي ديوان المتنبي ما يغنيه.

وذم أعرابي رجلاً فقال:

يكاد يعدي لؤمه من تسمى باسمه.

وغلا أعرابي في وصف تمر له فقال:

لو وضعت منه تمرة في فيك فَسَتَجِدُ حلاوتها في قدمك.

وجاء في كتاب (الصناعتين): «الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها».

وقال مطرف بن الشخير يحذر ابنه وقد أراد الغلو في العبادة: «يا بني إن الحسنة بين السيئتين، وخير الأمور أوسطها، وشر السير الحقحقة».

ويروي صاحب كتاب "معهد التنصيص" أن مراتب الغلو «تتفاوت إلى أن تؤول بقائلها إلى الكفر والعياذ الله تعالى». وحذر مؤلف "الساق على الساق" من الإفراط بالعبادة والتدين، وأنه يلتبس بالهوس والخبال، وجاء في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري: «إن لكل شيء حدًا، إذا تجاوز سمي مفرطًا، وما وقع الإفراط في شيء إلا شانه، وأعاد إلى الفساد صحته، وإلى القبح حسنه وبهاءه»، وينصح/ أبو حيان التوحيدي الإنسان قائلا له: «ليحفظ على نفسه

الاعتدال... من غير إفراط ولا تفريط فإنه حينئذ كامل فاضل، لا يجد عليه أحد مطعناً إلا سفيه لا يكترث له، أو جاهل لا يعبأ به»، والشعراء تحدثوا عن الغلو والمجون والوسط، قال ابن بسام البغدادي (٢٣٠هـ - ٣٠٢هـ):

قد دعتني إلى التنسك أقداحك بعد المجون والإفراط

وقال آخر:

إذا رحلت فاجعلوني وسطا إني كبير لا أطيق العندا

والشواهد المتداولة في المجتمع المسلم والمحرضة على الاعتدال والسكينة والرفق والوسطية كثيرة قال الشاعر:

لا ذا ولا ذاك في الإفراط أحمده وأحمد الأمر ما في الفعل يعتدل

وقال علي بن النضر:

بين التعزز والتذلل مسلك بادي المنار لعين كل موفق

فاسلكه في كل المواطن واجتنب كِبْرَ الأبيّ وذِلَّةَ المتملِّ

وقال زهير:

هم وسط ترضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وقال آخر (رجز):

لا تذهبن في الأمور مفرطا

لا تسألن إن سألت شططا

وكن من الناس جميعًا وسطا

وقال عائض القرني:

وسط نحن لا غلاة غلاظ أو جفاة من فرقة الشيطان

وسط بين من يكفّر بالذنب وبين الإرجاء في الإيمان

وسط بين من يسب عليا ... أو غبيًا عدوه الشيخان

وسط بين من يرى القضاء هراء ... أو حفيا بالجبر غير مصان

وبليد يرى الأئمة صفرًا ... موغل في الإيذاء والنكران

وعلى منهج الرسول مشينا ... ومع صحبه أولى الرضوان[1]

وقال ابن الوردي:

بين تبذير وبخل رتبة ... وكلا هذين إن زاد قتل

وقال آخر:

خير الأمر الوسط ... حب التناهي غلط

وقال محمد الهمداني (...هـ- ٦٥١هـ):

ولا الثريا بمقام الثرى ... ولا طريق الحق مثل المجون

وقال المعري (٣٦٣هـ - ٤٤٩):

والناس في ضد الهدى متشيع ... لزم الغلو وناصبي شاري

وقال أحمد شوقي (١٢٨٥هـ - ١٣٥١هـ):

ليس الغلو أمينًا في مشورته ... مناهج الرشد قد تخفى على الغالي

إن الوسطية تعني الاعتراف بالحرية للآخرين، وتعطي العدل في الحياة، والتوازن في الشخصية، والاعتدال في الدعاء، وتأخذ المسلم إلى العزة وتحذره من الكبر، وتدعوه إلى الخوف من الله دون أن تحطم أمله في رحمته سبحانه وتعالى، وتدفعه إلى التعاون مع أمم وحكومات في أشياء مشتركة كحقوق الإنسان، والعمل الإنساني، والحفاظ على البيئة، ومحاربة العنصرية والفقر دون أن تخدش ثوابت الإيمان.

---

(١) الأمة الوسط، د/ عائض القرني، ص ٥ .

وفي الثقافة الإسلامية حكم وأمثال وإقرار وتقريرات تدعو إلى الوسطية وتحذر من البخل والإسراف، والصمت والثرثرة، والغلو والتقصير، ومن ذلك:

- الزيادة في الحد نقصان في المحدود.
- الإفراط في العتاب يدعو إلى الاجتناب.
- أول العي الاختلاط، وأسوأ القول الإفراط.
- الإفراط في المزاح يذهب البهاء ويجرئ عليك أهل الدناءة.
- الإفراط في التواضع يوجب الذلة.
- الغلو آفة المدح.
- أكثر الخير في الأوساط.
- الإفراط في مؤانسة الناس يكسب قرناء السوء.
- كثرة الغيرة إضجار وقلتها اغترار.
- احترس من التفريط كاحتراسك من الإفراط.
- آفة الجود الإسراف.
- التبذير أن تنفق الطيب بالخبيث.
- من اشترى ما لا يحتاج إليه باع ما يحتاج إليه.
- ثمرة التفريط الندامة.
- تكمن الفضيلة بالوسط.
- الاعتدال أفضل الأطباء.
- لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفا.
- الاعتدال في الجود أحسن من الاعتداء على الموجود.

ومن القصص الداعية إلى الاعتدال والوسطية سياسة معاوية رضي الله عنه مع الرعية، ومحورها التوازن، حتى تحولت إلى مثلٍ فيقال: «شعرة معاوية»، وقصة تنازع مالك بن حيي وحارثة بن عبد العزيز عند علقمة، فكره تفاقم الأمر بينهما فقال: (أول العي الاختلاط، وأسوأ القول الإفراط، فلتكن منازعتكما في رَسْلٍ، ومشاناأتكما في مَهَلٍ).

ومن الأمثلة التي تنهي عن الإفراط: (دون ذا وينفق الحمار). وأصله أن رجلاً كان يبيع حماراً فقال صديق له:

أهذا حمارك الذي كنت تصيد عليه الوحش؟

وأراد إغراء المشتري به... فقال المشتري ذلك المثل.

وفي اللغة العربية كلمات تقترب من الغلو أو مرادفة له، كـ الشطط، والتنطع، والمبالغة، والإسراف، والتناهي، والتجاوز، والغالي، والزيادة، والبغي، والاعتداء، والطغيان، والجرف، والحرف، والتشدد.

وكلمات أخرى تقترب من الوسطية أو تسايرها، كـ الاعتدال، والقصد، والرفق، والوسط، والقسط، والقوام، والتوازن، والسواء، والخير، والفضل، والرفعة، والمكانة.

وكلمات ثالثة تقترب من التفريط أو تعبر عنه، كالتقصير، والمجون، والتالي، والجافي، والنقصان، والجفاء، والتقصير، والترك، والتضييع، والتساهل، والبعد، والتهاون.

أما أهل التفريط والمجون وهم قلة، فقد اختاروا التمتع بالحياة، الحياة من أجل الحياة، ولم يروا أنفسهم أنهم أصحاب رسالة، وانتماء عملي لخصائص

الأمة الإسلامية وما فيها من معالم إنسانية وعلاقات أخوية وتكافل، فوقعوا صيدًا سهلاً في أنياب الشبهات وبين أظافر الشهوات، في فترة من فترات حياتهم إن لم يكن كلها.

قال أبو نواس:

ومكنت المجانة من قيادي ولست من المجون بمستريح

وقال آخر:

لكنني أهوى المجون وأشتهي فيما أحب تهتك الأستار

وقال الوزير المغربي (٣٧٠هـ - ٤١٨هـ) يصف شبابه:

أعطيت ريعان الصبا من المجون ما أحب

وقال تميم الفاطمي (٣٣٧هـ - ٣٧٤هـ):

وأغرقت في اللهو إني امرؤ بطب المجون عليم بصير

وخلاصة الأمر: أنه لا ثقافة فاعلة وواقعية بدون الوسطية، حيث إنها تفعل النخب الاجتماعية، وتحمي ثقافة الأمة وهويتها، وتطلق الإرادة السياسية، وتضع البنية الأساسية الفكرية لحماية الوطن واستقراره، وتجدد آليات حركة الإسلام وتطبيقاته وتربطه باليوم والغد، وأهل الوسط في دائرة بعيدة عن الأهواء والعواطف والجهل والاستعجال، وشعارهم «لا تجد إسرافاً إلا وإلى جانبه حق مضيع».

من معالم الوسطية:

لوسطية الإسلام معالم ومفاصل شكّلت حصوناً تحميه من خصومه، وتشير إلى وجوده، وتمنحه التجذر والتواصل وتسهم في جعله منهجًا كاملاً تامًا

يجد السعادة من دخل فيه، أو نشأ في أحضانه، ويتغلغل الإعجاب والتقدير بمن عرفه حق المعرفة وإن لم يؤمن به.

فتناغم أجزاء الإسلام وتماسكها، وائتلاف أركانه وواجباته وسننه، واتزان أولوياته مع فروعه، كل ذلك – وغيره – شكلت منه صرحاً متراص البناء، محكم الترتيب، متكامل الأعضاء، يبهر العقول والبصائر السليمة الثاقبة، ولن تراه بوضوح إلا من خلال الوسطية، فأحكام الصلاة وما فيها من نظافة وترتيب وأقوال وحركات لوحة فنية رائعة الجمال، ونظام الزكاة، وشروطها، وأنواعها، ومقدارها، ومصادرها، وأهلها، لا يمكن أن تكون إبداعًا بشريًّا، لما فيها من تداول وحُسن واستمرارية وشمول، وخطط التوريث وفقه المواريث رسوم هندسية علمية فذة، تتضح أنوارها في ظل وسطية عالمية لا يقيدها زمان أو مكان.

والوسطي المسلم يعيش في منازل مهمة، هو بأمس الحاجة إليها في دنياه وآخرته، كمنزلة اليقظة والفكرة، والإشفاق والاستقامة، والمحبة والسكينة، والصبر والشكر، والورع والرضا، والتواضع والتهذيب، والإيثار والفرح، والعدل والأدب، والخلق والإحسان، والمعرفة والصفا، والشجاعة والرحمة، والتفاعل والرفق، والغضب والتسامح، والعمل والتوكل، وكلها بعيدة – بدرجات مختلفة – عن الغلاة وأهل المجون، كما أن التسامح والاختلاف والتعارف والحوار درجات من التآخي الإنساني، لا يستغني أحدها عن الآخر، ويكمل بعضها بعضاً، وتلتقي فيما بينها في ظل وسطية حقيقة، لا تخرج عن ثوابت الإسلام، وضروريات الدين، واحتياجات الحياة، ومستلزمات البقاء،

ومن المستحيلات أن تمارس الأمة والحكومات والأفراد العدل والحكمة والرأي السديد وهي بعيدة عن الوسطية، لأنها تدخل في جميع زوايا الحياة الفردية والاجتماعية، وهي مرتكز التوازن النفسي والديني والمالي، والمنهج الأمثل في الجمع بين المحافظة على هوية المسلم والاستفادة من حكمة الآخر.

ومن الصعوبة استعراض جميع معالم الوسطية الإسلامية، ومغذياتها، والتحدث عن أسسها وفوائدها وأحكامها وخصائصها ولكن ذكرها باختصار، والإشارة إلى بعضها يذكر بالأخرى.. ومنها:

[١] التسامح:

قال الشاعر:

إن السلامة والكرامة   في التسامح واللِّيان

المسلم الوسطي الصادق هو - وحده - الذي يقدم خاصية التسامح الإسلامي على أرض الواقع، بمنطلقاتها القرآنية الواضحة المتمثلة في رسالته العالمية إلى العالم أجمع، وما فيها من عدل وسلام وتعايش بين البشر في ظل حقائق كثيرة من أهمها:

(أ)أن الناس جميعًا من نفس واحدة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء : ١].

(ب) أن الأرض لجميع الناس:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١].

(جـ) أن السلام مطلب إسلامي:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال : ٦١].

فالإسلام مدرسة تربوية تسامحية يُرَبَّى – بدون تنازلات – المنتمي إليه على التسامح إزاء الثقافات والأديان والألوان واللغات والأعراف قال تعالى: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية : ١٤]، وقال جل وعلا: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٩]،

(د) إن الإسلام رسالة لكل الناس:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١].

ومن معضدات التسامح البر والرفق والإحسان، والرحمة، وفي صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: **(إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه)**، وفي سنن أبي داود أن رسول الله – عليه الصلاة والسلام – قال: **(من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)**، وقوله ﷺ: **(من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)**، رواه مسلم، والنصوص الداعية إلى التسامح ومرادفاته لا تحصى، وهو (قديم قدم الإسلام نفسه فلم يكن أمراً طارئاً، ولم يكن تشريعاً مؤقتاً، بل هو ذو أسس راسخة ومعالم واضحة منذ نزل الوحي على رسول الله ﷺ)[1]، والتسامح الإسلامي ليس من ثمار التنازل والتفضل والمنة، إنه سمة وموقف أخلاقي، تحتمه منزلة الإنسان في الإسلام، والاعتراف بإنسانيته وحريته.

---

(١) التسامح في الإسلام، أ.د/ زيد الزيد، ص ٤٥ .

وتظهر إشراقات التسامح في الإسلام جلية في موقفه من الأقليات ، وفي قبوله للتعددية ، وفي دعوته لحق الاختلاف ، وإقراره لحرية المعتقد ، مع وجود حدود واضحة وقوية ما بين التسامح والتفريط ، فالتسامح سلوك وثقافة عند المسلمين ، ينطلق من خصائص دينهم وهويتهم ، ويجذره الالتزام بالعدل كحدّ أدنى في التعامل مع الآخر ، وإن ارتقى إلى الإحسان والبر فخير وبركة ، والنصوص والتطبيقات أكثر وأكبر من أن تحصى ، والنظرة إلى مجمل المجتمعات الإسلامية تؤكد أن الفعل الجماعي يؤمن بالتسامح ويعمل به ، ومن الأمثلة الاجتماعية :

[١] كثرة الأسماء في الأمة الإسلامية المحسوبة على اليهود والنصارى : كموسى وسليمان ويوسف وعيسى ومريم ويحيى... بينما لا نجد اسم محمد لدى أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية.

[٢] إن أخطاء أفراد أو منظمات يهودية أو نصرانية لا يعمم – من خلالها – موقف الإسلام والمسلمين نحو الديانتين أو أصحابهما ، فليس كل اليهود (شارون) وليس كل النصارى (أصوليون إنجليون).

[٣] اليهودي والنصراني لا يعاقب أو يهمش بسبب دينه أو لونه أو قوميته ، والتقييم – دائما – ينطلق من السلوك الذاتي ، وليس من خصائص دينه أو أمته.

وكل ما سبق طعنات نجلاء لتُهَمِ التعصب والإرهاب التي يحاول الأعداء إلصاقها بالمسلمين والإسلام ، والأبحاث العلمية المعاصرة والقديمة تؤكد أنه لم يقم دين من الأديان بعرض الأديان الأخرى في كتبه الدينية ، والاعتراف بها ،

وذكر محاسنها وتجاوزاتها إلا الدين الإسلامي، ونتيجة لهذه الخطوة تم التعايش مع أصحابها، وظهر علم «مقارنة الأديان» و«الملل والنحل» والحوارات والمناظرات عند المسلمين.

[٢] الاختلاف:

والاعتراف به وقبوله واحترامه وإنزاله على الواقع من أهم خطوات الاستقرار بين المجتمعات، والسلام بين الدول، والإسلام يحمي الاختلاف، ويوجه المسلمين إلى تحويله إلى دائرة التعايش بدل الصراع، وإن لم يحالفه النجاح فإنه لا يضع الصدام من أسس الحياة وأصولها، ويحاول – ما استطاع – أن يجعله في زاوية ضيقة، من الصعوبة الوصول إليه.

والاختلاف بين الناس أصل في نظر الإسلام، وآية من آيات الله، وسنة كونية، وإثراء للاجتهاد والفكر، ولازم من لوازم عمارة الأرض، ومن خصائصه: التعارف، ووجود الآراء، وإعمال العقل، واحتضان العطاء الإنساني، وقبول تنوعه وجماله، بل إن الحياة كلها مبنية على الاختلاف، الأراضي متنوعة، والنبتات متعددة، والنهار درجات والليل مراحل، والسنة فصول، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات كثيرة... منها:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٨]، ويرى/ آرثر كيث: أن «العقل الإنساني يتألف من حوالي ثمانية عشر ألف مليون خلية عصبية، كل منها متصلة بالأخرى بشبكة عجيبة، ولم يولد بعد اثنان بنفس الرسم في شبكة الاتصال هذه، فليس العجيب أن نختلف وإنما العجيب حقا أن نتفق»، فتلون الأجناس واللغات وتنوع المهارات، وتعدد البيئات، واختلاف الثقافات وتباين الثروات، نعمة إلهية كبرى إذا رافقها وسطية تستثمرها في محيط العدل والإنسانية من أجل الإنسان.

إن الإيمان بالاختلاف (اختلاف التنوع) بين الناس في الإسلام من أهم خطوات التواصل، لأنه يحفظ على الطرفين حقوقهم، ويؤكد لهما أن المسلم لا يلغي الآخر، ويبقي فضاءات واسعة للإرادة والاختيار، كما أن الحوار والتعايش والتسامح والتعارف معالم حية ثمارها "السلم" بمقاييس ومواصفات إسلامية عالية الجودة، نادرة الوجود، لا نجدها في الدول المتقدمة ومجتمعاتها، فكذلك الاختلاف.

القرآن الكريم جاء بالمبادئ ووضع الخطوط الأساسية لأسباب الاختلاف وضوابطه، أما التفاصيل وإنزال النص على الواقع ورسم البرامج فهي للمجتهد بعد مراعاة المعطيات والمشكلات، والمكان والزمان، ومن أجل ذلك جاء دور الاختلاف المحمود، والاختلاف (بين الأفكار، والأحكام والمذاهب يشبه الخلاف الطبيعي القائم بين الألسنة والألوان)[1]، ففي الصلاة ببني قريظة من الصحابة من وقف عند ظاهر النص، ومنهم من ذهب إلى أعماق النص،

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، ص ١٩٠ .

وكل فيه خير، فالاختلاف بمفهومه العلمي، ونتائجه، يخدم الاتزان، وينطلق من الوسطية، ويتحرك من خلال المعالم الآتية:

[١] الوحدة وأخوة المسلمين مقدمة على كل الخلافات الجزئية.

[٢] إن إسعاد البشرية عامة والمسلمين خاصة هدف إسلامي كبير.

[٣] المسلمون في عبادتهم يتراوحون بين الفاضل والمفضول، والاختيار، والتفاوت في العمل والقبول والقدرات.

[٤] أثر التقوى على الاختلاف.

[٥] للاختلاف ضوابط. وتطبيقات السلف أسوة حسنة.

[٦] أهمية حصر الخلاف بين علماء المسلمين، ولا يتجاوز الى عامتهم، ووجوب إبعاده عن أعداء الإسلام والمسلمين.

أما الاختلاف المذموم "اختلاف الاضطراب والتضاد" فقد نهى عنه الرسول ﷺ بقوله: **(دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم)** رواه البخاري، وقال عليه الصلاة والسلام: **(اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا)** رواه البخاري، وأسباب وقوعه يمكن إجمالها في:

[١] اتباع الهوى والاستبداد وأوهام الورع.

[٢] أن يعتقد الإنسان في نفسه - أو يُعتقد فيه - أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين، ولم يبلغ ذلك.

[٣] اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق[١].

---

(١) حديث إفتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة، الصنعاني، ص ١٢.

[٤] الخلل في فهم منازع الإسلام ومقاصد الشريعة.

[٥] عقم العقل المبدع[٢].

ولا شك أن «الاختلاف الثقافي والعرفي والديني والمذهبي باقية حتى قيام الساعة، والحكم فيه يومئذٍ لله، والتعامل مع بقائه لا يكون بإلغائه ولا بتجاهله، بل بالتعرف إليه وتقبله واحترامه كسنة دائمة من سنن الكون»[٣].

ومن يستقرئ النصوص القرآنية والنبوية في معالم اختلاف التنوع وضوابطه يدرك أن التنوع والتباين من مقومات الحياة، ويكتشف أن المختلفين أقرب إلى التكامل من المتماثلين، وأفضل للحياة، وإذا كان الاختلاف سنة من سنن الله سبحانه وتعالى، فإن علماء الأمة وضعوا له آدابًا تحفظه في إطاره المحمود، وتحفظ المسلمين من أن يقودهم اختلافهم إلى التنافر والكيد والظلم، ففي البداية يكون الابتعاد عن الاختلاف ما أمكن، وإن وقع ردوه إلى كتاب الله وهدي الرسول ﷺ، وإن أمكن – بعد ذلك – الرضى بالرأيين وتصويب المختلفين، فهذا يُبْقي المودة ويُبْعِد التعصب. ومن الآداب – أيضا –: الالتزام بالتقوى، واجتناب المراء[١] أثناء الاختلاف، والبحث عن الحق، والاعتراف بالأخطاء، واللين والصبر.

[٣] التعارف:

يؤكد القرآن الكريم في آيات كثيرة على وجود الاختلاف والتنوع بين الناس، ويرفض في الوقت نفسه مصطلح "الصِّدام"، ويحاربه، ويستبدله بـ

---

(٢) فقه الخلاف، جمال سلطان، ص ٥٢.

(٣) الوسطية أبعاد في التراث والمعاصرة، أ. محمد السماك، ص ٦٢.

(١) أدب الاختلاف في الإسلام، د/ طه العلواني، ص ٥٠.

"التعارف".وإذ كان اللبن السائغ للشاربين يخرج من بين دم وفرث، أفلا يخرج الأمن والسلام، وتظهر الحكمة من بين القبائل والشعوب إذا هم تعارفوا؟ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات : ١٣].

ومن معاني الآية الكريمة تتضح أهداف التعارف ومبرراته، وتطرد محركات التنازع والتنابز والتباغض، وتجعل التقييم - فقط - للتقوى التي لا يعلمها إلا ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ فلا تؤدي - في هذه الحالة - إلى العلو والطغيان والتكبر، فالبشر كانوا أمة واحدة ثم اختلفوا، فدعاهم الإسلام إلى التعارف وهو - مع الاختلاف - جزء من الفطرة الإنسانية، وثماره:

[١] التعارف بداية الاعتراف بوجود المخالف، وخطوة تمتد إلى "تعارف الحضارات" المؤدي إلى تبادل الفوائد، والاحتفاء بالجيد منها بدون هيمنة وضغط.

[٢] التعارف بداية المعرفة المؤدية إلى الحوار والتسامح وتهميش الحروب والفتن والصدامات.

[٣] تعرّف غير المسلم على الإسلام والمسلمين، وتصحيح التشويهات التي تم إسقاطها عليهم، والوصول إلى أكبر عدد من الناس في العالم من مستلزمات الدين والحياة، ومعرفة حكمة الله في خلق البشر.

[٤] التعارف يثري التجارب البشرية، ويدعم التنوع الثقافي الإيجابي بين الشعوب، فـ"الحكمة ضالة المؤمن..."، والمسلمون لم يقفوا عند احترام الثقافات الأخرى، بل أخرجوا الجيد منها من عزلته، ونشروها في زوايا الأرض.

فالإسلام جاء ليستثمر الفروقات فيما بين المسلمين، وما بينهم وبين وغيرهم، من أجل السلام والبناء، وقَنَّن كل ذلك بالقسط والبر والإحسان فيما بينهم، وحفظ العهد والتزام المواثيق، وعلى المسلم أن يكون متوازناً في حياته ودعوته، ولن يكون كذلك إلا إذا كان متوازناً في شخصيته، فالنظرات والنظريات الضيقة التي تدعو إلى العرقية أو الإقليمية أو اللونية لا تخدم الشعوب، ولا تؤدي إلى الاستقرار، ولا تعمر الأرض، وما أسعد البشرية بدين عالمي يجعل التعارف من منطلقاته، تعارف ثقافي واجتماعي واقتصادي وعلمي، دين يتواصل مع كل الحضارات، ويعاملها بالعدل ويجعل للجميع حقوقًا وواجبات، فالتفاعل الإنساني في إطار التعارف يلغي الاستعلاء والدونية أثناء التأثير والتأثر، ويتمخض عنه خير كثير للبشرية، لأن المعرفة تحتاج إلى التعرف، والتعرف بدايته التعارف، وإذا غاب التعارف حضر الصدام.

إن المسلمين بحاجة إلى ندوات ومؤتمرات تؤصل دعوة القرآن الكريم إلى التعارف وتعميم ثقافته، ومشاركة الفقهاء في إحياء (فقه التعارف)، والسعي في إعاقة ونقض وكشف مسيرة دول كبرى تسعى إلى:

[١] تهميش الثقافات الأخرى، أو إلغائها.

[٢] إصرارها على عمليات الهيمنة بأنواعها.

[٣] تصديرها لنمطها الخاص وفرضه بالقوة على الجميع.

وأن يقوم أهل العلم والفكر والإعلام بإدخال مصطلح "العدل" و"التعارف" في مؤتمرات الحوار لكيلا تصطدم بالهيمنة والعنصرية والمصادرة والتهميش، ولتتم رؤية كل طرف على حقيقته، وليس ترويض طرف لطرف، فالبشر ليسوا حيوانات في غابة، أو عبيداً وأسياداً، فقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

[٤] الحوار:

ليس من المبالغة ولا القرب من حماها القول بأن الإسلام دين الحوار، فهو ليس فضيلة فقط بل فريضة في الكثير من دوائره، وعلى كل القادرين عليه، فلم يستبعد القرآن الكريم أي أحد منه، ولم يستثن موضوعاً حتى وجود الله، وعبادته، وجعل المرجعية في الحجة والإقناع – غالباً – للعقل، وهدفه التعايش الآمن، ومن المؤكدات ما جاء فيه من حوار الله – سبحانه وتعالى – مع إبليس، وحوار الأنبياء مع الطغاة، وحوار إبراهيم عليه السلام مع نفسه، وحوار سليمان عليه السلام مع الهدهد، فالقرآن الكريم يلح «على أن ما يحتكم الناس إليه وهو العقل، هو نفسه المعيار المنهجي لمصداقية «الآخر» وبذلك تبرز الدعوة لحوار عقلي مع الجميع للوصول إلى "كلمة سواء" تلتقي عليها الأطراف المتقاطبة، فمعرفة الاختلاف والإقرار به يمثلان مدخلاً إلى الحوار على أساس من الندية والاحترام»[١].

والسيرة النبوية مثقلة بالشواهد الحوارية الرائعة مع المشركين واليهود والنصارى والصحابة، وما كانت وسائل الوفود التي بعثها الرسول ﷺ أو استقبلها إلا "الحوار"، واستعراض حوارات النبي ﷺ تأخذ بأيدينا إلى أهمية الهدف في الحوار، وحضور الأدب فيه، وروح التسامح، وقبول الآخر دون تنازلات، وتنوع المحاورات، وإن من أهداف الحوارات النبوية: «الإقناع بالإسلام، وتعليم الإسلام، والتثبيت على الإيمان، والتعويد على التسليم لأوامر الله، والذود عن دين الله، وتيسير الطاعة لله، وحسن الاستثمار لنعم الله، والتعويد على المداومة في فعل الخيرات، والاقتصاد فيها، وحفظ

---

(١) الوسطية أبعاد في التراث والمعاصرة، د/ طيب تيزيني، ص ٢٥.

الحقوق...»[٢]، ولذا جاءت حواراته - عليه الصلاة والسلام - دعوية وتعليمية وقصصية وإصلاحية وشملت الكفار وأهل الكتاب والمسلمين والنساء والأطفال والزوجات والخدم[٣] وغيرهم، ومنها تم وضع أسس للحوار الإسلامي، وآدابه، وأصبح للإسلام منهجًا متميزًا في الحوار، تجذر وتمدد حتى وصل الأمر إلى لوحة مشرقة، عنوانها "الإسلام دين الحوار"، ولكن الأزمة تكمن في موقع المسلمين من إسلامهم، وفي ظلم غير المسلمين للإسلام والمسلمين، وهي ملامح أمراض الإفراط والتفريط.

في الساحة الإسلامية الكبيرة الكثير من القضايا التي تتطلع إلى حوار إسلامي يضيء دروبها ويضع معالمها، فحوار المسلمين مع أنفسهم ومع المسيحيين والقوميين والغربيين والعلمانيين وأصحاب الطوائف والمذاهب والاتجاهات كلها مشاريع مستمرة، ووسائل نشر للإسلام، والتعريف به إن أحسنا إدارتها، وتذكرنا خصائص الإسلام الحوارية بالمعالم التالية:

[١] الالتقاء - أولاً - حول المشتركات -:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

[٢] الجدل بالتي هي أحسن:

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(٢) الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين، د/ سعود صيني، ص ٣٢٢.

(٣) الحوار آدابه وتطبيقاته، خالد المغامسي، ص ٩٣.

[٣] التنزل مع الخصم في الألفاظ من أجل الوصول إلى إثبات الحق وتبليغ الحجة عن طريق الاستدلال..:

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥].

[٤] الرفق والرحمة بالآخر..:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

[٥] العدل:

والعدل من أكبر القيم التي احتضنها المشروع الحضاري الإسلامي، وتعم المسلم وغير المسلم، ومعاييرها واحدة، بعيدة عن الاستثناءات والعنصرية والخصوصية، لا تغيرها الأعراق والألوان واللغات والأديان، والمسلم ملزم بالجهاد من أجلها، يفرضه على نفسه، وعلى من حوله، وينصر به المظلوم ويحارب به الظالم، «إن الوسطية هي منهج الأخيار في كل دين، وكل ملة، وكل تيار فكري أو أيديولوجي أو فلسفي»[١]، فكيف إذا كانت وسطية الإسلام؟ التي يربطها بالعدل والشهادة علاقات تكاملية، فصل بعضها عن بعض وتفريغها من معانيها الرائعة إساءة إليها جميعاً، فالوسطية تستدعي الشهادة، والشهادة يتوجها العدل، والثلاثة ثمارها الخيرية، والحضور الإنساني، وقوتها «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

---

(١) الوسطية أبعاد في التراث والمعاصرة، د/ عبد الكبير المرغري، ص ٤٦

[٦] السلام:

مشتق منه الإسلام، ومن شعاراته الأصيلة، مقدم على الحرب، لأنها وسيلة، أما السلام فهو هدف، فالإسلام أول من أقر «التعايش السلمي» ولولا الظلم والبغي العدوان وموالاة الأعداء ومن يظاهرونهم على الشر لما كانت في الإسلام آيات الجهاد والقتال.

«الحوار النيّر الذي شرعه الله جل وعلا حوار هادف، مشرئب، يتوخى استنباط أسرار الكون، ويتطلع إلى لباب المعرفة، ويستزيد من جوهر الخير الخير، ولذلك كان مثمرًا إيجابيًا»[٢]، وبالحوار وليس القوة يتحدث العقلاء، ويرتقوا للوسطية، ويرى/ أبو حيان التوحيدي أن «النفس لها مرض وصحة، فصحتها اعتدالها في قواها الباقية، ومرضها خروجها عن الاعتدال».

---

(٢) الحوار نافذة من نور، عمر بهاء الدين الأميري، م/المسلم المعاصر، عدد (الأول ربيع الثاني ١٣٩٥هـ).

الوسطية... واستشراف المستقبل

الغلو والمجون، والتشدد والانحلال، والإفراط والتفريط ظواهر فكرية وسلوكية تصطدم مع الفطرة السليمة، والعقل الفاعل، والدين الصحيح، الذي هو في حقيقته رحمة للعالمين، ووسطية الإسلام لا تصب في دروب من ترك الدنيا من أجل الآخرة، ولا تلتقي مع من تمسك بالدنيا وطلق أختها.

فأصحاب التوجهات الروحية بالغوا في تقديس الاهتمام بها، وأن الروح أزلية، وأصل الإنسان، وجوهره، ومن الحكمة تحريرها من الجسد، وتطهيرها وتزكيتها...، وانطلقوا في إصلاح الإنسان منها - فقط - متكئين على زيادة التعبد والتبتل والزهد والنسك، ووصل الحد بالبعض منهم إلى تعذيب الجسم، واعتزال الناس، والاستخفاف بالزواج، وتحريم الطيبات، واحتقار المال، وتعطيل العقل...، مما أدى إلى إهمال عمارة الأرض، والمشي في مناكبها، واستثمار خيراتها، ففقدوا التوازن الداخلي والخارجي، وانفصلوا عن الواقع، وتعطلت الكثير من الأحكام، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

يقابلهم أصحاب الدعوات المادية، حيث قَدَّموا للنفس ما تشتهي من اللذات الحسية العاجلة، والمتع، من أجل حفظها - بزعمهم - من الوقوع في الكبت والحرمان، وفصلوها عن أمسها وغدها، وعن خالقها، وما بعد حياتها الدنيا، فأصبح الإنسان لديهم كأنه حيوان في غابة يأكل ويؤكل، وويل للضعيف من القوي، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

وهؤلاء – في هذا العصر – ركبوا قطار الرأسمالية الغربية أو كادوا، وجَرُّوا على دينهم وأوطانهم وهويتهم شيئا من المسخ، تختلف باختلاف قربهم أو بعدهم.

والفطرة الصحيحة، والعقل الفاعل، والدين الصحيح هي روح الحياة وسرّ حركتها، وأسباب بقائها، والإنسان – في نظر الإسلام – يتكون من روح وجسد، وفيه خير وشر، وحب وبغض، ثمارها من خلال المجتمعات والشعوب – صراع ووفاق، وتنافس وتعاون.

وللروح والجسد غذاؤهما، وحاجاتهما الأساسية، وما زاد عنها مؤذ، وما نقص مضر، وكمال الإنسان النسبي، وصلاحه يستلزمهما، فهو بحاجة ماسة إلى الأكل والشرب، والملبس والزواج، والزينة والسكن، مع التدين، وأفضله دين الإسلام المؤدي إلى عبادة الله سبحانه وتعالى كما يريد، وأداء الصلاة والصيام والذكر والشكر، ودعوته إلى إحياء العقل والقلب بالتوجيهات الربانية، وتغذية الجسم بالطِّيب والحلال.

إن الإسلام يمتد من الأمس إلى اليوم، ويملك خطوط اتصال مع الغد، ويخاطب جميع المسارات القادمة.

- يخاطب الفرد على أن له نهاية، ولديه ذروة في العمل، وعليه أن يستفيد من شبابه وصحته وفراغه.

- يخاطب الدولة، ويدعوها إلى العدل، وأن نهايتها تكمن في إسناد الأمر إلى غير أهله أو تحكم المترفين بها.

- يخاطب الحضارة، مؤكدًا أن تداول الأيام بين الناس وانتقالها من المفسدين إلى المصلحين سنة من سنن الله سبحانه وتعالى.

- يخاطب نهاية الحياة البشرية كلها، وقيام الساعة وانتهاء الدورة الإنسانية[1]، ووقوف الجميع أمام العدالة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

ومع هذه الخطوط الرائعة والواضحة تأتي عوامل مساعدة تدفع الإسلام ومن يحمله إلى المقدمة.. ومن تلك العوامل:

[١] قوة الإسلام الفطرية والعقلية والعملية، ومناسبته لكل زمان ومكان، واتزانه ووسطيته، وإمساكه بجميع الخيوط المطلوبة، وانعكاس كل ذلك على واقع المسلمين وآمالهم وتفاعلاتهم مع متطلبات الحياة.

[٢] إمكانيات المسلمين من ناحية الموقع، والكثافة السكانية، والتراث، وما يفرضه إسلامهم عليهم من بذل الجهد في جميع عطاءاتهم.

[٣] سقوط النظريات البشرية نظراً لمحدودية تطلعاتها وضعف بنائها وعجزها في تحقيق السعادة للإنسان كـ(الشيوعية) و(الرأسمالية) ويقابله العودة إلى الدين و نشوء الأدب الإسلامي، وأسلمة العلوم الاجتماعية، وانتشار التعابير والمفاهيم والمصطلحات الإسلامية[1].

[٤] دور الوسائل الحديثة والتقنية في التواصل مع العالم، وتوظيفها في عرض الإسلام على كل إنسان، وممارسة الدعوة للإسلام والدفاع عنه، والدخول مع غير المسلمين في الحوار، وتبادل المعلومات، ورفع الادعاء بالجهل أو الإقبال على التشويه وقبوله، إن «الاستجابة لدعوة الإسلام، وقبول الاستماع إلى

---

(١) عقيدة الإسلام أيديولوجية المستقبل، مهدي بن عبود، ص ٢٤.

(١) حركة الإسلام السياسي والمستقبل، د/ رضوان السيد، ص ٢٠.

دعاته وعلمائه ومفكريه، وقبول التحاور معهم، قد يكون اليوم متحققاً أكثر من أي عصر سابق»[٢].

[٥] تمام وشمولية الإسلام وكماله خاصة في جوانبه الخُلُقِيَّة والسياسية والاقتصادية، وكون محورها عبادة الله جل وعلا المنضبطة بالخوف والرجاء، المنتمية إلى سننه سبحانه وتعالى، المتفقة مع (الإيمان بالله الحق، والإيمان بالدين الحق، والعمل الحقيقي بمقتضى المنهج الرباني)[١]، أما البعيدون عن الله فمآلهم السقوط قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

وهذا هو مصيرهم وإن كانوا أقوياء متمكنين، بيدهم شيء من القدرات الدنيوية، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

يقابل هؤلاء، المؤمنون بالله، والمتوكلون عليه، والسائرون على كتابه - سبحانه وتعالى - وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - قال تعالى مبشراً ومخبراً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(٢) مستقبل الإسلام، أحمد الريسوني، مجلة الفرقان، عدد ٥٣.

(١) العلمانيون والإسلام، محمد قطب، ص ١٣٠.

فتحولت هذه الخصائص إلى دروب في ميادين الحياة، وخطط يعبر مجموعة من الاتجاهات الإسلامية عنها بقدر ما لديها من فهم وإمكانية، كالاتجاه السياسي أو العَقَدِيّ أو التربوي والتبليغي أو الحضاري، أو الفلسفي، أو العلمي، أو الحزبي، وبعضها أخذ معاني أخرى، كالاتجاه الاحترازي، أو الاختصاري أو الاجتراري، أو الجهادي أو الواقعي، أو الانفتاحي، ولا شك أن النفس السوية تميل إلى الاعتدال، والقبح خارج عن الوسطية، وأهم أسباب القبول والحسن تناسب الأشياء وتوازناتها.

والوسطية سارت في عدة دروب، وتلبست بعدة حلل، من أهمها (الوسطية الإيجابية) المنطلقة من السلام، والمتعانقة مع الاتجاه الحضاري، ومن صفاتها (التيسير لا التعسير والتبشير لا التعصب، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والتسامح لا الادعاء، والاجتهاد لا التقليد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيب، والوسطية لا الغلو ولا التقصير)[١]، وكل هذه الاتجاهات وغيرها مؤشرات على حجم التواجد الإسلامي وفاعليته، وتنوع خطاباته، وتواصل خطواته، فالبداية من (الماضي)، والنمو من (الحاضر)، والهدف (للمستقبل)، ويؤكده:

(أ) أن من يرصد أسهم الصعود والهبوط للعقائد والأيديولوجيات يجد أن الإسلام أخذ نصيب الأسد رغم أن المسلمين لم يمسكوا - حتى الآن - بزمام التقدم العلمي والتقني ولم يملكوا قوة متميزة، أو يستثمروا إمكانياتهم ومكانتهم كغيرهم.

---

(١) مستقبل الإسلام، أحمد الريسوني، مجلة الفرقان، عدد ٥٣.

(ب) انكشاف عورات الآخرين، ودعواهم الكاذبة في نشر الديمقراطية، والمساواة، والدفاع عن حقوق الإنسان، واتكائهم المطلق على العقل والعلم وتهميشهم للقيم، وتركيزهم على الإشباع الحسي والمادي، فأصيبت البشرية - بسببهم - في أعز ما تملك، إنسانيتها وآدميتها، لقد قدمت الكثير، ووظفت الكثير، واخترعت الكثير، ولكن الإنسان يعاني، ويتألم، وينتحر في دائرتها.

إن المسلم رائد حضارة الغد، بما يحمله من رسالة سماوية متوجة بالأخلاق، محفوفة بالمسؤولية والأمانة، تجمع بين القلب والعقل، والروح والجسد، مؤمن أن الله وضع الإنسان فوق جميع الكائنات، وجعله خليفة، ونفخ فيه من روحه[٢] وأرسل إليه رسله وأنبياءه - عليهم الصلاة والسلام -، فالناس كلهم خلق الله والإسلام رسالة الله الأخيرة إليهم جميعا، والتعارف من أسس تعايشهم، وقد كانت قريش تتواصل مع القبائل العربية أجناس أخرى، تواصلاً تجارياً تحوّل إلى ظاهرة تحدَّث عنها القرآن الكريم ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾، ثم جاءت البعثة المحمدية لتضيف إلى التواصل الأول المادي تواصلاً أخوياً روحياً، يؤدي بالمؤمنين بها إلى خير الدارين، والمسلم المعاصر خطوة من خطوات دينه وعليه أن:

[١] يتوجه إلى الغرب، ويطعّم تقدمهم العلمي والتكنولوجي بروحانية الإسلام وأخلاقه.

[٢] أو يستورد علم وتكنولوجيا الغرب ويمزجها بالقيم الإسلامية، وينطلق ممسكاً بزمام العالمية الخلاقة.

---

(٢) العرب يبدعون مستقبلهم، د/ حسن صعب، ص ٢١.

وفي كلتا الحالتين، أو الجمع بينهما، ليس بحاجة إلى حروب مدمرة أو سقوط حكومات داخلية وخارجية، ففي الحالة الأولى يصحح، وفي الثانية يقتبس، وليس أمامه ما يثلم خطواته، والإسلام يساعد في ذلك كله. يقول / "إيريك جوفروا" – أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة ستراسبورغ في فرنسا، من مقال له في جريدة الحياة ٢٠٠٧/١/٣م –: «يجب على المسلمين أن يجدوا طريق الوسطية بين التقليد الأعمى للغرب والرفض الغاضب له، عندها يمكنهم أن يجدوا في هذا الغرب بعض الفضائل مثل: روح التنظيم، والمواطنة، وأدوات التحليل المستمدة من العلوم الإنسانية.. إلخ، وذلك من دون التخلي عن شخصيتهم الإسلامية العميقة».

إن أفضل رؤية مستقبلية للعالم تحملها النخب لأممها هي الوسطية الإسلامية، رؤية عامة المسلمين، حيث إنها عالمية وإنسانية، وطويلة الأجل، بل لا يوجد رؤية بعمقها ومواصفاتها، بل لا يوجد رؤية عالمية غيرها يمكن تصديرها، دون مصادرة فكر الآخرين، أو الاعتداء على حرياتهم، فهذه الرؤية أفضل للعالم حتى لغير المسلمين؛ لأنها تقوم على العالمية، وترحب بالقوميات المتعددة، وباللغات الكثيرة، وبجميع الألوان والثقافات الفرعية المتنوعة، ولأنها خير للعالم، أصبحت مطلوبة أكثر من كونها طالبة، والحقيقة فيها ثابتة، وأكبر من كونها علمية أو عقلية فقط، بينما غيرها من التصورات، الحقائق فيها قليلة أو معدومة، «إنه يجب فهم الإسلام ليس على أنه مجرد دين يوضح العلاقة بين الذات والإله فحسب، بل على أنه حضارة تشير إلى كيفية معاملة كل فرد للآخر، وللطبيعة، وعمل الخير، فقضايا الاقتصاد والحكم غير

منفكة عن الخطاب الديني، والإسلام لا يدفع كل فرد ومجتمع لقياس حاضره على المستقبل المثالي، كما تمثل في حياة وتعاليم النبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل لديه القدرة على أن يصبح نموذجاً تخطيطيا للمستقبلات»[١].

إن حضارة الإسلام حضارة تسامح وحوار وتعارف، محورها الإنسان والعمران، لا تعرف الانتقام، روح عقيدتها التوحيد، وروح عبادتها الإخلاص، وروح عملها الإتقان، وروح أخلاقها الخير، وروح آدابها الذوق، وروح تشريعها العدل، وروح روابطها الإخاء، وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل[٢]، وهذا – وغيره – جعلها مرشحة للمستقبل، خاصة إذا التزم المسلمون بالوسطية الواسعة والاتزان الرائع، وتمددت مشاعرهم في الأحاسيس التالية:

[١] وعي الأمة والدول الإسلامية، وإدراكها لحجم واقعها وما فيه من تخلف، يعطيها أفضل الخطوات إلى الأمل والمستقبل.

[٢] حركة الأمة، بداية من القرية والمدينة حتى كل الوطن، بطاقتها الذاتية وإمكانياتها ودينها، وليس بعوامل خارجية أو بآلية فكرية زائفة شاذة مستوردة.

[٣] القناعة التامة الكاملة بأن أمتنا الإسلامية في كل ديار الإسلام تمر بأزمة طارئة مؤقتة وليس بهزيمة دائمة.

[٤] الإيمان العملي بأن المسلمين أصحاب رسالة عالمية للعالمين، لا يحدها زمان، ولا يقيدها مكان، ولا يُعْفَى منها مسلم.

---

(١) استشراف مستقبل الأمة، سهيل عناية الله، مجلة إسلامية المعرفة، عدد ١٧.

(٢) الدور الحضاري للأمة المسلمة، مركز البحوث والدراسات، ص ٦٩٥.

[٥] القناعة التامة من النخب الإسلامية والمثقفين بأن الإسلام دواء ناجع ووحيد لما تعاني منه البشرية، من تخبط سياسي وعسكري واقتصادي أخرجها عن الفطرة السوية، والعدالة الحقة، والأمن الصادق، وإن لم يؤمنوا به جميعًا.

إن من يتأمل القرآن الكريم والأحاديث النبوية يدرك ما فيهما من أبعاد للعلاقات التكاملية بين الدوائر الثلاث (الماضي، والحاضر، والمستقبل)، ويلمس حديثهما عن الغد، فالإسلام يخاطب المستقبل، قضية تؤكدها روافد عديدة منها: أنه فطرة إلهية، وروح ومادة، وثوابت ومتغيرات، وخاص وعام، ودنيا وآخرة، وبعبارة واحدة لأنه شامل تام كامل[1]، وهذا سرّ امتداده للمستقبل.

الإسلام دين المستقبل:

الإسلام قادم، والمبشرات والمؤشرات كثيرة، وَعْد الله - سبحانه وتعالى -، وسننه التي لا تحابي أحداً: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

كما أن مسيرة التاريخ والتغييرات الاجتماعية، والدراسات العلمية جميعها - في نظرتها للإسلام - تعيش ما بين السكوت وتأكيد قدومه، يضاف إليها إفلاس كبرى النظريات الإنسانية، فبعضها انتهى، والأخرى في دروب النهاية، وهذا ما يجعل الغرب السياسي في رهبة وقلق واستنفار.

---

(١) الإسلام يخاطب المستقبل، د/ محمد العزب، مجلة الأزهر، ربيع الأول ١٤٢٣هـ.

ولا يجادل عالم في الأرض أن العالم الإسلامي لديه خصائص ومقومات وإمكانيات الدولة العظمى، والتقدم ليس له مسار واحد، وديمقراطية الغرب ليست شرطًا من شروطه، والتجربة الصينية من الأمثلة الحية، وحضارة الغرب بدأت في التلاشي[1]، يقول "ج. ف. غيلويز": «لقد نشرت الصحف مؤخراً بيانات تفيد أن الفلاسفة والكتاب في الغرب يزعمون أن الأديان المعاصرة قد أصبحت بالية عتيقة... ولا بد من التخلص منها، وهذا يبين مقدار التشاؤم الذي تعاني منه جمهرة الكتاب الغربيين، بسبب ما يلاقونه من تعقيدات وغموض في ديانتهم النصرانية، هؤلاء يرتكبون خطأ، فالإسلام الذي يمثل الإجابة الكاملة الوحيدة، لا يزال قائماً وعلى استعداد لأن يكون البديل، وهو جاهز لذلك»[2].

ويعتقد/ كوفهي لان جابا «إن الإسلام بوسعه تلبية كافة حاجات الإنسان في العصر الحاضر، فليس هناك أي دين كالإسلام يستطيع أن يقدم أنجح الحلول للمشكلات والقضايا المعاصرة، فمثلاً، أشد ما يحتاج إليه العالم اليوم الأخوة والمساواة، وهذه وجميع الفضائل لا تجتمع إلا في الإسلام؛ لأن الإسلام لا يفاضل بين الناس إلا على أساس العمل والبذل»[1].

---

(١) يؤكد/ باتريك. ج. بيو كانن في كتابه (موت الغرب) أن الولايات المتحدة لم تعد وعاء صحيا لذويان الحضارات، أصبحت كيانا مشوشاً ومترنحا، وأنها ستكون دولة من طراز دول العالم الثالث.

(٢) قالوا عن الإسلام، د/ عماد الدين خليل، ص ٤٦٤.

(١) المرجع السابق، ص ٤٥٠.

ومع شهادات هؤلاء – وغيرهم – تأتي دراسات استشراف المستقبل تتحدث عن (الإعداد للدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد) و(حاجة الحضارة العالمية للرؤية الإسلامية) و(المشروع الحضاري الإسلامي.. تأملات وبصائر) و«حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا) و(المستقبل لهذا الدين) و(الإسلام دين الغد) و(الإسلام يتحدى»[٢].

إن المسلمين ومن دوائر المحن والدماء وإحاطة الأعداء بهم أخذوا برؤية مستقبلهم، وكأنهم على أبواب الخروج من النفق الطويل المظلم، متجهين إلى الاعتدال والتوازن والواقعية، مما دفع أعداءهم إلى وضع برنامج يحمل عناوين المنهج الإسلامي نفسه لعلهم يضلون عن الأصل، كالفرقان الحق، وشبكات الاعتدال الإسلامية.

دعوة الغرب إلى وسطية إسلامية:

لا يمل الغرب ولا ييأس من محاولات تهجين العالم الإسلامي وترويض المسلمين، واستهدافهم بكل الوسائل؛ من أجل أن يركبوا مؤخرة القطار الغربي، مع حرمانهم من خصائصه، وقد أخذ هذا الموضوع درجات عليا من الاهتمامات الرسمية على أنه قضية حياة أو موت، فالاستعمار، ومحاربة اللغة العربية، والغزو الثقافي، واختراق الإفتاء، وتحرير المرأة، وتجديد الخطاب الديني، وبعض مسارات الحوار، ونظرية نهاية التاريخ وصدام الحضارات، والدعوة إلى الوسطية الغربية والاعتدال، لوحات لا تغيب عن عين المسلم الحزين.

---

(٢) عناوين كتب وبحوث لنخبة من المفكرين الإسلاميين.

إن دعوتهم إلى الوسطية أخذت عدة مسارات واختلطت بالصادق والمخلص، والانتهازي والجاهل، وقد حظيت واشنطن و لندن وعواصم عربية بمؤتمرات عن الوسطية شارك فيها علماء ومفكرون، ومراكز ومقرات، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وينقلب - أحياناً - السحر على الساحر، ومكر الله أكبر، والمسلم لا يلدغ من جحر مرتين، والشفافية الإعلامية العالمية، وحضور الرأي العام الإسلامي حواجز ودروع أمام الباطل، والمضادات العقدية والعبادية التي غرسها الإسلام في المسلمين جعلتهم - مع عصريتهم - لهم ملامحهم الخاصة، وعلاماتهم البارزة، وقوتهم الناعمة، المستعصية على التفريغ.

ويوازي هذا المسار استكتاب كتَّاب في العالم الإسلامي يُلَمِّعُون ليبرالية الغرب وديمقراطيته ويربطونها بالإسلام، ويجردون - في الوقت نفسه - أمتهم من بعض تقاليدها وثقافتها وشيء من دينها، وقد تمخض من هذا المسار العودة إلى هوية الأمة، واستيقظت ردود الفعل، وتفاعلت قضايا إسلامية عديدة على السطح ورجعت المجتمعات الإسلامية إلى تراثها، وأصبح الكتاب الإسلامي في مقدمة الكتب تأليفاً ونشراً وبيعاً.

ومسار ثالث جاء من مراكز البحوث والدراسات الأمريكية، شخصوا دواء الأمة! وعلاجها! ووضعوا دواءً غربيًا في زجاجة إسلامية! حيث أصدرت (مؤسسة راند) الأمريكية تقريراً في مارس ٢٠٠٧ بعنوان (بناء شبكات مسلمة معتدلة) - والإشكالية أن معاييرها تختلف عن معايير الإسلام وعند مجمل المسلمين!!! - ومن معاير الاعتدال عند (راند):

- لستَ معتدلا إن رفضت أن يُغَيِّر المسلمُ دينه.

- لستَ معتدلا إن لم تؤمن بالديمقراطية الغربية.

- لستَ معتدلا إن أيدت الجهاد.

- لستَ معتدلا إن لم تقبل بتشريعات غير إسلامية.

- لستَ معتدلا إن رأيت أن المرأة الفاضلة هي المرأة الملتزمة.

- لستَ معتدلا إن لم تكن صوفيا وتزور الأضرحة.

ولا شك أن شبكات الاعتدال الأمريكية للمسلمين هدفها تجذير ثقافة الهيمنة، واستنزاف ثروات الأمة، وإبقاؤها سوقا مستهلكة، فالاعتدال الأمريكي إضعاف وتنازل وخلط، لقد ظلم الغرب العالم الإسلامي وأخرج بعض المسلمين من وسطيتهم إلى الغلو، ويسعى _ الآن – إلى إدخالهم وسطية (راند).

لقد أثمرت تأويلاتهم وجهودهم جهودا إسلامية صادقة، حددت وسطية الإسلام، والمفاهيم، والوسائل، وائتلف المختلف، واقترب المبتعد، وتنازل الكثير عن كثير من الجزئيات، وإن هم لم يصلوا إلى الهدف فإنهم في الطريق إليه، ومن الجروح المفيدة اتساع أصداء الوسطية ونبثها وتلميع معالمها بعد أحداث ١١ / سبتمبر.

الوسطية والسياسة

الوسطية السياسية أمل جميل لشعوب العالم الثالث، للمجتمعات المقهورة أمام هيمنة القوى الكبرى، وإرهابها واستغلالها وتطرفها، وهي الرد الشافي على التحالف النكد بين العولمة والقوة والرأسمالية، وهي المصدات الثابتة أمام الضربات الاستباقية، واحتكار السلاح النووي، والاتجار المطلق بالآلة العسكرية، واستنزاف ثروات الضعفاء.

من الوسطية ظهرت أدوية عديدة تعالج الظلم والاعتداء بين الدول، وولد مصطلح «الحياد» بين الأطراف المتصادمة، وسياسة «عدم الانحياز»، ومقاومة الجنوب «الفقير» للشمال «الغني».

الوسطية السياسية يتطلع إليها كل فرد وشعب يعاني من عبث الدكتاتورية، والاستئثار بالسلطة، ومفاتيحها الإسلامية تكمن في قاعدة «العدل أساس الملك»، وما يجاور العدل من وسط وخيار وشهادة ومعروف، وهدفها المصلحة العامة، والحكومة العادلة لا يتبحبح في بيئتها التطرف والغلو، ولا يتبختر في أجوائها الإرهاب والعنف، وتحتضن الأحزاب لا التحزب، وتعتمد على تيارات الوسط السياسي التي تهتم في إنسانية الإنسان، وبقيم العمل، وبخدمة الأكثرية، ويمكن إجمال الأولويات السياسية المتزنة بـ:

[١] قبول التعددية في السلطة والمعارضة.

[٢] فرض القانون على الجميع وبدون استثناء أو تمييز.

[٣] احترام كرامة الإنسان وحقوقه.

[٤] تنمية وقبول ثقافة المشاركة.

هذه هي أهم مؤشرات الوسطية السياسية، ويتسع نورها إذا كانت ثقافة اجتماعية يغذّيها وهج الإسلام وروعته.

فالوسطية الإسلاميّة (هي تيار الأغلبية العظمى في الأمة الإسلامية، ويمكن أن نقول إنها عقيدة الغالبية الصامتة)[1]، وهي قادمة والأسباب كثيرة، منها دروس الماضي، وكيد الأعداء، والوعي، وأهمية التكتلات، والفرج بعد الشدة، وتعدد اللقاءات بين النخب الإسلامية، وتنوع المؤتمرات، وتأثير الرأي العام، وفشل الأطروحات السابقة، وقبل ذلك وبعده عون الله سبحانه وتعالى وتوفيقه ووعده.

---

(١) الوسطية أبعاد في التراث والمعاصرة، د/ عبد الكبير المدغري، ص ٤٤ .



الأمثلة والتطبيقات

«فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه ، وخير الناس النمط الأوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين ، ولم يلحقوا بغلو المعتدين ، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطا ، وهي الخيار العدل لتوسطها بين الطرفين المذمومين والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط»

ابن القيم

مدخل

الوسطية وصف للإسلام وصفة للمسلمين، وهي تشريف وتكليف، وليست – فقط – نسقًا فكريًّا محدودًا، يحمله تيار أو يعبر عنه مذهب، أو تمتاز به طائفة، ووجودها فيهما هو الأصل، وضعفها أو غيابها مؤشر على خلل – ما – في الوعي أو السلوك أو فيهما معاً، والشريعة فعلت الوسطية لأنها لكل الناس في كل الأمكنة على مدار الساعة، ولأنها تفي بحاجات الإنسان ومتطلبات الأمة الإسلامية، ولأن منهجها التيسير.

ووجود الوسطية في مشاريع الإصلاح أكبر من كونها جزءاً من قضية أو وسيلة مؤقتة في موضوع، فهي قاسم مشترك فاعل بين جميع الفئات الإسلامية، وأداة تواصل مع غير المسلمين، وعلامة فارقة لازمة في الإسلام، ومسيرة الإصلاح الإسلامي الوسطى عملية دائمة ومستمرة وشاملة، وتنطلق من إصلاح الفرد المسلم قبل ولادته، وإعداده ليكون صاحب رسالة وذا قيم، مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن نفسه وعمّن تحت يده ومن يحتك بهم، في سلوكه مساحات واسعة تتسع للمسلم وغير المسلم، وتحترم إنسانية الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وتنأى به بعيدًا عن الإيذاء والسخرية، وحمل الخير وعمله سمة من سماته، ثم تستمر ثمار الخير منه حتى بعد وفاته من خلال الابن الصالح والصدقة الجارية، والعلم النافع... والخير والصلاح والاتزان في قاموس المسلم تمتاز بما يلي:

[١] مرتبطة بالعقيدة، ففيها صفاء الضمائر والتقوى، بل تصل إلى الأحاسيس والمشاعر وتعابير الوجه، فهو يثاب عليها أو يعاقب.

[٢] انطلاقها من نفوس مطمئنة.

[٣] تؤدي إلى السلام الحقيقي بين الأمم والشعوب، وخاصة الإسلامية، فالوسطية أول وأهم خطوات طرد العبث بالاختلافات بين المذاهب والتيارات والتوجهات الفكرية، وبداية تطبيع العلاقات بينها، ومن أبرز آليات إنقاذ المسلين من المؤامرات والمهاترات.

[٤] تعطي الأفضلية للكيان الإسلامي، فقد روى مسلم - رحمه الله - عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**)، دون بخس لحق الآخرين.

[٥] تأكيد الإسلام على المسلمين بأن يكونوا في أعلا درجات الأخلاق، قال عليه الصلاة والسلام، «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، رواه الإمام أحمد. وهم أصحاب عدل ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢]، يضبطون نفوسهم «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» متفق عليه، أصحاب عفو وحلم وأناة.

[٦] دعوة الإسلام الدائمة للمسلمين في أن يكونوا في أعلا درجات الانتباه واليقظة، ففي الداخل العيون مفتوحة؛ لكيلا يخرق أي فرد من أفراد الأمة السفينة، وفي الخارج كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام، عليه واجب الحماية وصدّ كل الاختراقات من قبله.

ولا تتكامل محامد الأمة المحمدية أمام الأمم الأخرى بدون العدل والخيرية والشهادة على الناس، والوسطية هي آلية تفعيل هذه الخصائص، وإذا كانت

الرسل عليهم الصلاة والسلام، وجميع الأديان السماوية جاءت واضحة وتؤكد - بعد التوحيد - على القيم والتوازن فماذا سيكون عليه الإسلام، آخر الأديان ولجميع الخلق، وأشملها وأتمها وأكملها؟ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

ثم خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين من الأمة الإسلامية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ودعاهم الرحمن الرحيم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وأمرهم العزيز الحكيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

وهذه النصوص القرآنية تحولت إلى خطوات عملية في ميدان الحياة، ومن الأمثلة الحية عليها:

- قول الرسول ﷺ: **(وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)** رواه البخاري.

- قصة الرجل القبطي الذي اشتكى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما فعله به ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (والي مصر) فأنصفه - رضي الله عنهم جميعا -.

- قصة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حينما أسند إليه رسول الله ﷺ خرص مزارع خيبر فحاول اليهود رشوته فغضب غضباً شديدًا، ورأى أنهم طعنوا عدالته وخدشوا أمانته فخاطبهم قائلا: **(يا معشر اليهود.. أنتم أبغض الخلق**

إلي، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم) وفي النهاية أقر اليهود بعدله.

- قصة شريح مع النصراني - (وفي رواية مع يهودي) - الذي سرق درع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن يتأمل هذه المواقف ويربطها بمعاني ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ "خيارا" و"عدلاً"، يلمس أمكانية التطبيق وأثره.

إن هذه الوسطية المؤدية إلى السلام والرفق والعدل لا تعني الانتقائية ولا التوافقية، إنها قوة مع عزة، والتزام وصبر وعمل، شاملة ملموسة، يمكن أن نجدها في فتاوى العلماء وخطوات الساسة وتوجيهات الاقتصاديين، ووسائل التربويين، وعطاءات المعلمين، وسطية تتشبث بالأصول وتتواصل مع الواقع، وتلتزم بالثوابت، وتتسامح في الفروع.

إن الشرائح التي تضطلع بالاتزان في عبادة العزيز الحميد وفي حقه وصفاته سبحانه وتعالى ما بين المعطلة والمشبهة، وفي أفعاله - جل وعلا - بين الجبرية والقدرية وفي غيرها بين المرجئة والمعتزلة أصابت الوسطية، ووصلت إليها في احترام الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، بين من يقتلهم ويعبدهم، وتقديرهم للصحابة ما بين الخوارج والرافضة، ووسط في الأكل والشرب فالله - سبحانه وتعالى - أحلَّ للأمة الوسط الطيبات، وحرم عليهم الخبائث[1]، ووسط بين الجفاة والغلاة، ووسط في العلم والسلوك، ووسط في الاختلاط والغربة، وهذه الوسطيات – وغيرها – شكلت مسلمًا وسطيًّا، وصبغته بمنهج

---

(1) مجموعة فتاوى ابن تيمية، جـ ٢٥، ص ٢٥٠.

لا يتزحزح عنه في النوازل المعاصرة، فهو بين المادية والروحية، والرأسمالية والاشتراكية، والحديّة والذوبان، والعزلة والاندماج، ومحركها قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

ودعاؤها التوازني: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» أخرجه مسلم، يقوده إلى العدل بين الأطراف، والوسطية في كل خطواته.

إن هذه الشرائح من الأمة الإسلامية اتكأت على منهج الاعتدال، وعروقها القوية روح عالية في التعاون المثمر والتنافس البناء، وقبول حقيقي لجميع ألوان الطيف الاجتماعي الإسلامي، وتعامل أخلاقي مع التيارات الإسلامية، واحترام لتخصصات أفراد الأمة واهتمامات أبنائها، وهي لا تكره مسلمًا قط، ولكنها تكره ما فيه من ذنوب وأخطاء، وهي لا تعين الشيطان على أخ، ولا تستبشر بانحرافه، وتحسن الظن به، ولا تدعي احتكار الحق، وتوزيع مفاتيح الجنة، ولا تضيّق واسعًا فلا ترى الإسلام من خلال هذه الطائفة، أو ذلك التيار، فهي وسط في الشعور والتفكير والعلاقات والالتزامات والتنظيم والتهذيب، ووسط في الشعائر والإنفاق والسلوك والمعاملات والقضاء والخيرية والزمان والمكان[١]، فالدين الوسط هو ما عليه خيار الأمة قديمًا وحديثًا[٢].

---

(١) خصوصية الحضارة الإسلامية (الوسطية)، د/ عصام البشير، ص ١٨ .

(٢) مجموعة فتاوى ابن تيمية جـ ٢٢ ، ص ٥٢٢ .

فالوسطية تربط بين أغلب الثنائيات باتزان، وتوائم بين النوم واليقظة، والضعف والجلد، والجوع والتخمة، وأسوتها رسول الله ﷺ، فقد جمع بين الحزن والرضا وهو يدفن ابنه وعيناه تدمع وقد استسلم لقضاء الله سبحانه وتعالى، وموقفه - عليه الصلاة والسلام - قمة الكمال البشري، وحاد عنه الصوفي الذي رضي بدون حزن، والعقلاني الذي حزن بدون رضا، فالكمال والصلاح لا ينالهما إلا من كان وسطاً بين (طبيعة يابسة قاسية) و«لينة منقادة سَلِسَة القيادة، لكنها غير ثابتة على ذلك بل سريعة الانتقال عنه، كثيرة التقلب، فمتى رزق العبد انقياداً للحق وثباتاً عليه فليبشر»[١].

ويمكن الإشارة باختزال إلى أهم ثمار الاعتدال والوسطية.. وهي:

[١] التوازن النفسي للمسلم وتوازنه في التعامل مع ما يحيط به.

[٢] العدل، فالمتحيز – غالباً – لا يميز.

[٣] سعة الأفق في الفكر والتعامل، ووجود الخيارات المناسبة.

[٤] الحب، فمشاعر الألفة والمحبة والمودة والرحمة هي أقوى وأظهر واثبت مما لدى أصحاب الإفراط والتفريط.

[٥] السعادة، والتي هي انعكاسٌ للاتزان والرضا، وقبول الآخر.

[٦] تعدد البدائل والواقعية، فالمتشدد لا يخرج عن قاعدة (هُمْ) أو (نَحْنُ) والمنحل حطم الكثير من الحدود.

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم الجوزية، ص ١٦٣ .

الوسطية والفتوى

الإفتاء في خطواته الأولى نشاط مدني ليس له علاقة بالسلطة، ومهمته توجيه وإرشاد المسلمين، والتعريف بالحكم الشرعي، أما القضاء فإنه دائرة أهل المنازعات، تابع للدولة، والاجتهاد ممول علمي وفكري للإفتاء والقضاء.

ولكن من أزمات المجتمعات الإسلامية المعاصرة (الفتوى) و(المفتون)، ومن الصعوبة وضع جميع الأسباب أو ترتيبها ترتيبا تنازليًا ولكن يمكن إجمالها فيما يلي:

[١] المساحات المختلفة - اتساعًا وضيقًا - بين الكثير من الحكومات الإسلامية وشعوبها، أثمرت خلافات وشكوكًا، جعلت لكل طرف مفتيًّا وفتوى.

[٢] وجود الكثير من الحركات الإسلامية داخل المجتمع الإسلامي الواحد، وتميز كل حركة بمنهج ومفتي، واجتهادات متباينة جَرَّأت أنصاف العلماء، وطلبة العلم، وأحيانًا بعض العامة على الإفتاء، ورد الفتوى، وظهر صدام مؤلم بين علم المفتي وولائه للاتجاه أو المذهب أو السلطة أو الطبيعة، أثر على الرضى، وجدد الشرائح الشاردة والشاذة.

[٣] كثرة القضايا النازلة المعاصرة على المسلمين، والصدمات النكدة بين الواقع والواجب وبين السياسة والأمة، وبين الفقيه والسلطان، وبين العالم والمفكر.

[٤] تعرض بعض المجتمعات الإسلامية المعاصرة إلى انفتاح مفاجئ، جعلها تفقد توازنها، وتعاني من الصدمة، أدت إلى تهميش المفتي التقليدي أمام المعاصر، والأصولي أمام الحداثي، ولعبت المصطلحات الفكرية دورًا فاعلاً في الفوضى والتشتت، فنسي أهل الحل والعقد وما دونهم، الصفات التي يجب توفرها في المفتي ومنها الإسلام والعدالة والبلوغ، والعقل، والعلم، والمروءة، والضبط، وعدم التهمة، وسلامة الحواس.

[٥] الخلط البيّن بين فتاوى الأمة وفتاوى الأفراد، والفتوى الجماعية المعقدة والفتوى الخاصة المستقلة، ودخول القاضي والمحامي والداعية والخطيب والمدرس وإمام المسجد دائرة الإفتاء، وسرعتهم بالإجابة، وعدم التثبت من السؤال وفي الإجابة.

[٦] المؤثرات على المفتي، فضغط بعض السلطات وما بعدها عليه، يقابله ضغط اجتماعي، وآخر حركي، والرابع مَصْلَحِيّ، ييسر الفتوى لنفسه ولمن تحت عباءته ويقسو – أو يحتاط – حينما يفتي للناس أو للمعارضين، ويشدد على العامة ويلين مع الحكام وأصحاب الجاه.. وهكذا، ولا يظن ظانٌّ أن الإسلام أعطى المفتي حصانة، أو أحاطه بالقداسة المطلقة، فمع نزاهة الكثيرين منهم في مسيرة الفتوى التاريخية وجد ويوجد المفتي الخارج عن التقوى، والمتطلع للدنيا، ويرى الرافعي -رحمه الله- أن الناس لاتحتاج (في هذا الزمن الى العالم، وإن الكتب والعلوم لتملأ الدنيا وإنمايحتاجون الى ضمير العالم)، ورائع وجميل ونادر أن تجد عالم لم يتعلق قلبه بمال وجاه وترف

[٧] التدخلات الخارجية في الفتوى، فالولايات المتحدة الأمريكية في رهبة كبيرة منها، على اعتبار أن لها أثرها الملموس على المسلمين و الواقع، وأنها من الوسائل التي يوظفها المتشددون للوصول إلى أهدافهم، ومن المحركات الأساسية للجهاد والإرهاب.

ومن المؤلم أن بعض الحكومات الإسلامية جعلت من هيئات الفتوى والعلماء المعتبرين جهات استشارية، وفضلت الولاء منهم على العلم فيهم، وحوّلتهم إلى أجهزة للدفاع عنها وتبرير سلوكياتها، وتسببت – أحياناً – في

تدخل دول كافرة في صياغة الفتوى وإظهارها، أو في كبتها، ونسيت – أو تناست – أن الفتوى من الأعمال المهمة والصعبة، وأنها صناعة مركبة، وأنها – في الغالب – حكم الله ومطلوبه، وأن سلوكياتهم سوف يعريها الزمن، ويفضحها التاريخ.

والإشكالية الكبرى – بعد ذلك – ما الحل؟ ومن يضعه؟

جاء المفكرون يبحثون عن مخرج، وصنعوا (فقه الواقع) أو (فقه النوازل)، واقترحوا إدارة مستقلة للفتوى وأن تكون منتخبة وعالمية، وسعوا إلى تحرير الفتوى والمفتي من جميع المؤثرات لكي تعبر عن الإسلام وترشد المسلمين، ولا تزال أهدافهم بعيدة وخطواتهم مبعثرة، والقرار السياسي يتربص بمشاريع الإصلاح.

والحقيقة أن في الإسلام كل الحلول، ولكن تفعيلها ورد المفتين والناس والحكام إليها هو بيت القصيد ومحور المشكلة، والمفتي المخلص عليه – أولاً – أن يميز بين الحق والباطل ثم عليه أن يؤثر الحق على الباطل، ولن يتحقق له ذلك إلا بعد شعوره بالأمن بأنواعه، ومعرفة حال المسألة ومعرفة العدل فيها، وأسس كل ذلك إدراكه والتزامه الخالص والصائب من الأقوال والأفعال الثابتة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ووسطية الإسلام كفيلة بنقل الفتوى إلى التوازن، وتحريرها من الضغوط والأطماع، وتراوحها بين الحاكم والمحكوم، وتمزقها بين الغلو والمجون، والخلطة والعزلة، والقسوة واللين، والشاطبي – رحمه الله – في الموافقات يصف المفتين و الموقع الذي حدده الإسلام لهم، قائلاً: «المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط

فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا أن الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة، فإنه قد مرّ أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموماً عند العلماء الراسخين».

من عيوب المفتين والفتوى:

إن الكم الكثير من الفتاوى اليومية عن طريق الهاتف، والإنترنت، والمساجد، والحلقات العلمية والدعوية، في وسائل الإعلام المتنوعة والمتعددة تزيد الحيرة وتمزق الألفة وتضرب النصوص بعضها ببعض، وبعضها – مع الأسف – لا تلمس منها أنه تم استفراغ الجهد فيها، أو تم استيعاب المفتي لها حتى أصبحت روابطها بالأدلة الشرعية واهية، وجزء منها تقدمه الفضائيات – وخاصة الفنية والرياضية والعابثة – وهي بعيدة كل البعد عن المسؤولية، وذلك حينما تقدم برنامجًا دينيًا، أو تستضيف (مُدّعي المعرفة الدينية) وهدفها تنويع برامجها واستقطاب شرائح من المشاهدين، أو أنها تريد سد فراغ – ما – أو إرضاء لمؤسسها أو مديرها، أو خروجًا من الإحراج، ويؤكد ذلك أن ما تقدمه باسم الدين يكون – غالبًا – بعيدًا عن الخصائص اللازمة والشروط الأساسية للجودة العلمية الدينية، بسبب منطلقات الخطة والهدف من البرنامج واختيار (مدعي العلم) وأنصاف العلماء، فتأتي أقوالهم مطابقة لأهواء القناة، وعدم جديتها، و أكبر زللها عجزها في التفريق بين المفتي والواعظ، والداعية والمفكر، وخلطها بين القضاء والفتوى، ثم تحويل منابرها الدينية إلى وسائل

للإثارة والجدل واستقطاب الجماهير، وطرح القضايا الشاذة والغريبة، وغير الممكنة، والمشاهد الحاذق لا يقبل من قناة تهدم الأخلاق وتَدَّعي بناء الدين، ولا يحترم مفتيًّا يرى أن فتواه تشريف لا تكليف، ويتصدر الفتوى بفرح ورضى، ويستنكف عن الاستشارة، ولا يراعي أحوال السائل، أو صيغة السؤال ومعناه، ومن العجائب اندثار كلمة (لا أدري) من غالب المفتين، وتنوعت أحوال العلماء، ودخل فيهم ما ليس منهم، وكثر الحديث عنهم، ووصف /مصطفى الرافعي بعض هؤلاء قائلاً: «إذا رأيت لعلماء السوء وقارا فهو البلادة، أو رقة فسمها الضعف، أو محاسنة فقل أنها النفاق، أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها».

ومع هذا فالأمة بحاجة إلى الفتاوى الفضائية، وهي وسيلة مهمة في معالجة الكثير من القضايا، ولكنها تحتاج – كغيرها – إلى ضوابط وشروط عملية علمية عالية، وهي – أيضا – مهمة في تعميم تعدد الآراء وتوسيع الضيق، وإخراج الإسلام من الغرف المغلقة، ولكن بعد تنظيمها ومتابعتها، وجعل الواجب منطلقها الأول وليس الواقع، وتجريم الفتوى من غير المختص دعوة جميلة إذا ضبطت منطلقاتها وأهدافها، وتم تحديد المختص، وكانت متكأتها نية سليمة، ومحركاتها البحث عن الحق وحفظه والدفاع عنه، ومعالجة كثافتها وفوضويتها، ومع الأسف إن العلوم الأخرى محفوظة وبإدارة المهتمين والمختصين، بينما شرع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك، إن الفتوى تحتاج إلى تنظيم وإصلاح لكي تتعزز الثقة بها، وطرد المتطفلين على مائدتها ليس من احتكار العلم ولكنه من إعطاء السهم لباريه.

ومن عيوب الفتاوى أنها – كغيرها – يعاني بعضها من أمراض، وللأمراض ظواهر وأسباب ومراحل، ومنها: تباين سُبل الوصول إلى النص، والأخذ منه، والاستعجال بالإجابة، والتطبيق الخاطئ، وضعف الاستقراء، وعدم ربط الفتوى بأهداف الدين ومجمله، وإثارتها – أحياناً – للفتنة، أو أن تؤدي إلى الفساد، وتماس خطوط الشريعة مع السياسة والتيارات والأهواء، فمؤسسات الفتوى المعاصرة البعيدة عن الاستقلال والتمويل الذاتي تحمل علامات استفهام أكثر من كونها تقدم إجابات، و الكثير من دول العالم الإسلامي السني تعرضت مركزيتها الدينية العليا – بعد الاستعمار – إلى رسمية ذات مواصفات، وتفتيت تجاذبه تقليديون ومتشددون وأصحاب مجون، فاستغلوا أهمية الفتوى وتأثيرها وجعلوها تصب في مصالحهم، أو رؤاهم المحدودة، دون مراعاة يسيرة لرسالتها الحقيقية أو للدين الذي تمثله، وفي بعض المراحل المحرجة يحدث تحالف بين أطراف متباينة، تُضاعف جروحها، وصفها وحذر منه الملك/ عبد العزيز – رحمه الله – في أول خطاب له بعد مبايعته ملكاً على الحجاز في ١٣٤٤/٠٦/٢٣هـ قائلا: «متى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر كل منهم على الآخر فيمنح الأمير الرواتب، والعلماء يدلسون ويتملقون ضاعت أمور الناس، وفقدنا – والعياذ بالله – الآخرة والأولى».

وخطر النفوذ السياسي على هيئات الفتوى يتجاوز خطر الأعداء في كثير من القضايا، وقد ربط بعض المتابعين بين علماء السلطة وظاهرة خروج الفتوى عن مسارها العلمي الشرعي، ومن يتابع الفتاوى والمفتين يلمس أزمة سقط زمامها، ولا مخرج منها إلا إعادة الفتوى إلى موقعها الحقيقي، وإنقاذها من

حركات وطوائف تريد استغلالها أو حكومات ترى استمرارها داخل عباءتها، أو عوام لا يقبلون إلا ما نشؤوا عليه، وعبء هذه الفوضى يقع – ابتداء – على المفتي والجهات المعنية، وأهل الفكر الإسلامي بيدهم أكثر من زمام.

ومن إشكاليات الفتوى – في هذا العصر – تكليف المنتمي لمذهب، والمتخصص في فقه العبادات أن يضع النقاط على الحروف في قضايا المجتمع المعاصرة الكبرى، أو إحالة أصحاب التنمية والبحوث العلمية والمختبرات والصناعات التحليلية الغذائية والطبية إلى المفتين التقليدين، وتعليق مشاريعهم على أقوالهم دون أن يكون لديهم مختصون وهيئات بحثية عليا، وكأن لهم حنكة الباحث العلمي، والقدرة على التعامل مع المجهر والتلسكوب، والإحاطة بعلوم المادة، مع براعة السياسي وألاعيبه وقدراته على المناورة والرضى بالممكن، وانتظار القريب أو إبعاده، وبهذه الحال أعطينا المفتي أكثر مما يطيق، ووسعنا أفقه وميادينه دون إذنه، أو مراعاة إمكانياته، مما أسقط مكانته عند العامة.

ومن أمراض بعض الفتاوى أنها خارج إطار الزمن، فالواقع اتسع والفتوى تضيق، والكثير من الدول الإسلامية تكاد الفتاوى الرسمية الهامة تختفي فيها إلا أثناء الأزمات السياسية، وهي لا تشكل تفاعلاً ثقافيًا ولا حركة معرفية ولا تتجه – بخط مستقيم – إلى قضايا الأمة الأساسية أو الشائكة، والمؤلم أنها – أحيانا – تخدر العلم الديني المنتج للحرية والعدالة والتفكير في بعض تصوراتها، وفي بعض الزوايا تجد أن العالم من أشر الناس، وذالك حينما تكون كلماته في القمة وسلوكه في القاع، اويراعي الصداقة في الفتوى.

وتعاني الفتاوى في بعض أماكنها وأجزائها من نقص في الورع ومن علاماته الجراءة عليها، والضعف الظاهر في أدب المفتي والمستفتي، وتحول الاختلاف بين المفتين إلى خلاف، وقد حملت بعض الصحف الجادة عناوين المعاناة كـ(التنافس على الفتاوى) و(فوضى الفتاوى)، و(تضارب الفتاوى)، و(أزمات الفتوى)، وتَوَّج ذلك كله خلو أنظمة الكثير من الدول الإسلامية من ضوابط الفتوى ووظيفة المفتي واستقلاله، ولوائح إدارتها، فهي لم تتركها ولم تلتزم بتنظيمها وكأنها من سقط المتاع.

ومن الملامح السيئة في هذا الباب تطاول الصغار على الكبار، وتهميش المفتي، أو التشهير به، أو تزكيته، وتقديم صكوك البراءة والعصمة له، أو لهاث بعض العلماء خلف صاحب جاه أو مركز أو وسيلة إعلام، مما يقدم الأشخاص على الحق، ويلغي الخطاب المعرفي الذي هو وسط بين الحالتين، ويؤخر العلاج الناجع لأمراض الرأي الواحد، المؤدي في النهاية إلى التعصب ثم العدوان، كما أن كثرة الأسئلة للمفتين وتكرارها وسطحيتها تدل على بُعد الكثير من المسلمين عن روح الإسلام، ولو عاش المسلم مع مقاصد الشريعة وروح الإسلام لما احتاج إلى كثرة الأسئلة عن دينه، وتكرارها في كل مناسبة وموسم، مع تهميش مسائل الأمة المهمة، ومنطلقات وعيها وحضورها.

الوسطية هي المخرج:

من الثابت أن التهم تكال على الإسلام، والشبهات تصب من هنا وهناك، والفتوى من مفاصل الإسلام المهمة، لذا علق بها أشياء من تلك الطعون، وهي غير ما يوجه مباشرة إلى المفتي والفتوى من تشويه، والقرآن الكريم حذر

ونهى ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل : ١١٦].

والمجتمعات الإسلامية وحكوماتها تتجاذبها مذاهب وطوائف وفرق وتيارات وطرق، والوسطية علاج قوي وفاعل لإرهاصات تفتتها أو صدامها، فيلتقي حولها أصحاب الدين الواحد فيتعارفوا ويأتلفوا، ويرى بعضهم بعضًا عن قرب فتتبخر مظاهر الاحتقان والاحتقار والمبالغة، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: (ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه)، وروي عن سفيان الثوري: «إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد»[1]، وأفضل منه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس : ٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج : ٧٨]، وقوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥].

والوسطية مهمة بين مفتي المذهب واللامذهبي، وإن كان المقلد ليس بعالم على الأرجح، إلا أن متابعة الأحكام ومعرفة العلل وتأويلات العلماء من آليات المفتي، واللامذهبي فيه خير كثير إذا توفرت فيه شروط المجتهد، وكان في بيئة آمنة وبين جناحيه قلب نقي.

والوسطية بلسم لتشابك القضايا الفقهية بدائرة العقائد، وتماس المواضيع الخلافية مع حدود الثوابت، وتداخل الفروع بالأصول.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، جـ ٢، ص ٣٦.

والوسطية خير ما يُعَوَّل عليها بين ترك الفتوى للقادر والسكوت عنها، وبين توحيد فتاوى المسلمين أو تمزقهم، وبين الفتوى والتشريع، وبين الإفتاء الجماعي والفردي، فالإسلام يفتح أبواب الفتوى الجماعية والفردية، ولكل شروطه وضوابطه، ويدعو إلى فتاوى إنشائية وانتقائية، ولكل زمانه ومكانه وقضاياه، ويحذر من السكوت عن قول الحق ويصف الساكت عن الحق بالشيطان الأخرس، وينهى عن أن يتحدث المسلم في كل شيء أو في كل ما يعرف أو أن يتجاوز بأسلوبه وأفكاره حدود قدرات المستمعين.

والوسطية بيئة قوية لميثاق قضايا الإفتاء، وما يتبعها من تفعيل المجامع الفقهية، واستعانة المفتي بالمتخصص، وتطوير آلية الاجتهاد، والتمسك بما أجمعت عليه الأمة، وتحديد فتوى الضرورة، وتعاون المرجعيات العلمية، واحترام بعضها لبعض، وإحياء فقه المقاصد والمصالح والنوازل.

إن الدول الإسلامية وشعوبها بحاجة ماسة وعاجلة إلى تقنين الفتوى وتحديد المؤهل، من أجل:

- معالجة فوضى الفتوى وتعددها.
- تحديد الحدود بين الفتاوى الخاصة والأخرى العامة.
- استقلال المفتي.
- اختيار المفتي.

ومن معالم العلاج:

- استقلال المؤسسة الدينية للإفتاء استقلالاً تاماً.
- وضع ضوابط علمية صارمة للمفتين.
- إنشاء هيئة علمية عليا تشرف على الفتوى والمفتين.

ووسطية المفتى منزلة مطلوبة بين الرخص المائعة والاحترازات الشاقة، وبين التعسير والإرخاء، وبين التقديس والتجاهل، وبين التقليد الأعمى والتحرر اللامنضبط، وبين الانفصال عن الواقع وتبعية الغرب (الفتوى المفروضة أو المستوردة)، ويرى العلامة عبد الله بن بيّه: «إن المفتي لا بد أن يكون عالماً مستبصراً، وأن يكون ذا ديانة، ومن شروط الكمال أن يكون ذا أناة وتؤدة، متوخيا الوسطية، بصيراً بالمصالح عارفاً بالواقع، ملمًّا الكليات ومطلعاً على الجزئيات، موازنا بين المقاصد والوسائل والنصوص الخاصة»[1]، فخصائص الفتوى المطلوبة من الشرع للواقع تتكئ على الوسطية، وتنطلق من التيسير ورفع الحرج والابتعاد عن الشدة والرخاء، والعمل ما بين احترازات ابن عمر ورخص ابن عباس رضي الله عنهما، ومرعاة (مآلات الجواب)، فالقرآن الكريم أجاب عن سؤال (الأهِلَّة) بما يخدم الواقع والهدف وليس السائل، والرسول ﷺ لم يبن الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام رغم أهميته، ورفض القتال في العهد المكي ولم يقاتل المنافقين في العهد المدني، كما أن تغيير الفتوى لا يمس الإسلام، ولا يعبر عن التردد والجهل، وليس من البدع في الدين، فالفتوى مرتبطة بالعلة والمصلحة والمكان والزمان، والحجاج – مثلاً – أحوالهم الآن تختلف عن واقعهم قبل مئات السنين، ولذا جاءت القاعدة الأصولية «لا يُنْكر تغيير الأحكام بتغير الزمان».

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط، ١٥ يونيو ٢٠٠٦م.

الوسطية والجهاد

أين الجهاد من الوسطية في العصر الحديث؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يجب أن نرى موقع الجهاد في الفقه الإسلامي، ودروبه، وحدوده، ومحركاته، والمتحركين فيه، وأنه وسيلة وليس غاية، وتابع للمصلحة، ومتى يكون فرض عين، أو فرض كفاية، أو يكون مكروهاً أو محرماً؟.

وصور الجهاد المعاصرة تمزقت بين الشريعة والحكام، والتضخيم الإيماني عند بعض الأفراد، والتوظيف الخارجي، وأصبحت أهدافاً، ومفصولة عن الواقع والمصلحة، فانتشر التكفير، واهتزت المفاهيم، وتَوَرَّمَ الغلوّ وحضر المجون، وتاه الكثيرون عن روح النصوص الثابتة، لأن المفتي الرباني في ظلمات ثلاث (سجن وعزلة وحصار) وبين جناحيه العدل والوسطية.

وإن صورته – أو صوره – في عصرنا تؤشر – في الغالب – إلى تراوح زمامه ما بين متحمسين لعودته، ومستبشرين بإحيائه بمقاييسهم ومواصفاتهم، وبين فئات وحكومات – تلغيه – أو تكاد – وكلا طرفي السبيل ذميم، لأن الإسلام الدين الوحيد والنظام المنفرد الذي يرفض الصراعات العرقية واللونية والعنصرية والدينية والاقتصادية والسياسية، ويدعو إلى رؤية عالمية تؤكد أن البشرية أصلها واحد، وأن الإنسان له الأفضلية والتكريم على جميع المخلوقات، والكون وما فيه خلق من أجله، والعدالة مكفولة للجميع، وفي الوقت نفسه يضع للجهاد فضائل، إنه عنوان محبة الله ورسوله، وأعلى درجات التطوع، ومن علامات الهداية، ومكفرات الذنوب، ومن أسس بقاء

الأمة[1] والدين، وهو ثابت في الديانات السماوية، ومن مستلزمات بقاء الدولة الإسلامية، ومر بمراحل في الإسلام، وله تعاريف وشروط وأقسام ومواضع وأسباب، وهو «شرف عظيم ومنزلة رفيعة لا يبلغها إلا من مَنَّ الله عليه بالإيمان العميق واليقين الصادق»[1] ولا يشك مسلم بعظم أجر المجاهد وفضل الجهاد وأهميته، وثواب الاستعداد له، وأنه من القضايا الإسلامية المحكمة، واضحة الدلالة والثبوت، والآيات والأحاديث فيه كثيرة، وبيّنة، وممارسة الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم للجهاد ثابتة، ومتكررة، ولا خلاف حول أهميته، وقد زخرت كتب التفسير والفقه والسير والأدب والتاريخ بالكثير من الأبواب والفصول عن فوائده وأثره وثماره، والثناء على المرابطين، وأمراء الثغور، وذم المتخلفين عن أدائه، والفارِّين منه، وحذر المجاهدين من الغدر والغلو والمثلة، وأكد أن أدواتهم في الجهاد تحمل أسماء كالسيف والسهم والرمح، ومعناها الحقيقي الرحمة والعدل والدواء.

ومع أن الإسلام دين السلام إلا أنه لا يلغي القتال، ويضعه من الخيارات الأخيرة، ولذا يحث على بناء قوة فاعلة لتكون - أولاً - قوة ردع، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقوة دفاع، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ [البقرة: ١٩٠].

---

(١) انظر: (مفهوم الجهاد ودور شيخ الإسلام فيه)، مجلة الحكمة، عدد ٢١.

(١) الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع، صالح اللحيدان، ص ٦٥.

وقوة هجوم أمام أنواع من البغاة والظلمة لكي تصل أضواء العدل وحرية الاختيار إلى كل الزوايا، قال تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦]. وقوله جلّ وعلا: ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحجرات : ٩]. وقال سبحانه: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢].

والإسلام بمنهجه التام الكامل يقابل قوة ملحدة، وأخرى مشركة، ولكنه لا يبالي بهما في ميدان الرأي والحوار، لأنه يملك الأدلة والمواقف والوسائل الصحيحة، وهي تغنيه عن القتال، أما إذا فضلا مواجهته بالسلاح أو ما يقاربه من حصار وتشويه وظلم فإنه يحث أتباعه على أن يكونوا في أعلى درجات الاستعداد والتضحية، ويقدم للشهداء منهم أعلى الدرجات، وللأحياء النصر والتمكين.

وقد كاد الجهاد أن يكون الركن السادس من أركان الإسلام، وهو ذروة سنامه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [التوبة : ١١١].

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: **(رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)**، وهو بعد توفر شروطه يكون فرض عين، أو فرض كفاية، وفي المقابل نجد أن للمسلم ودمه وعرضه وماله مكانة تتجاوز حدود التصورات، قال عليه الصلاة والسلام: **(لزوال الدنيا أهون عند الله من**

قتل رجل مسلم) رواه النسائي، فهو أفضل من الكعبة، ولو كانت الدنيا كلها لقمة في فيه ما كانت كثيرة عليه، ومع أهمية الإنسان يجب الجهاد ويدرك المسلم – من خلال إسلامه – أن حفظ الأرواح والأعراض والأموال والعقول والدين من حتمية الحياة، والتحذير من القتل وسفك الدماء والظلم جاءت في أكثر من آية وحديث، وأن الأصل التعارف والتسامح والحوار وعمارة الأرض، وأنه لا إكراه في الدين «وينبغي ألاّ نعيش ردة الفعل بالنسبة لقراراتنا الصادرة تجاه أي موضوع، والوسطية بالمفهوم القرآني خير سبيل لكل مشكلاتنا»(١) والمخرج واضح كل الوضوح، أن الجهاد آخر الحلول مع حضوره الدائم في نفوس المسلمين.

فأسس الإسلام ومقاصده تؤكد أنه وضع الجهاد وسطًا بين نظرتين، وجعل له حدودًا أوسع من الزاوية التي حُصر فيها، حيث يشمل جهاد النفس والشيطان والأعداء، والمخرج الحقيقي يتكئ على تصحيح التصور عن جهاد الأعداء في الإسلام، ويمكن إجمالها في النقاط التالية: -

[١] أنه لا إكراه في الدين، ومن المحرمات الإسلامية فرض الإسلام على الآخر، أو استعمال العنف والقوة أو الجهاد في هدايته، قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والأمة الإسلامية أمة هداية قبل كونها أمة حرب.

[٢] أن الجهاد في الإسلام لا يكون إلا من أجل رد العدوان عن الإسلام وبلاد المسلمين، أو تأديب الظالم، وحماية الدين والنفس والعقل، والعرض

---

(١) الجهاد في الإسلام، عبد الرحمن رفية، مجلة الاجتهاد، عدد ٢٥.

والمال والأرض، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨].

فالبر أعلى درجات الإحسان، والقسط العدل، ويرى/ أبو بكر بن العربي أن تعطي الكافر قسطًا من مالك إذا أبدى المودة ولم يخرجك من أرضك أو يقاتلك في دينك، وجمهور الفقهاء، والأئمة الثلاثة (أحمد بن حنبل، مالك ابن أنس، وأبو حنيفة النعمان) يرون أن علة الجهاد رد العدوان أو الخوف منه، كما «إن الجهاد في مدلول الشرع أعم من أن يكون قتالاً، كما فهمه بعض أهل العلم، مما جعل المستشرقين ينالون من الإسلام بسببه، بل القتال بعض أنواع الجهاد، ولا يستعمل إلا عند الضرورة والاضطرار إليه، كالكي للعلاج»(١).

[٣] أن للجهاد في الإسلام ضوابط وأحكاماً فلا يجوز بعد إسلام الطرف الثاني، أو بعد دفعه للجزية محاربته، ويحرم التمثيل بالمقتول، أو الإسراف في القتل، أو قتال غير المقاتل، أو قتل الأطفال، والمستأمنين والشيوخ والنساء والحيوانات، أو الاعتداء على المعابد، وإحراق الأرض وتجريفها، والإفساد، وردم المياه وقطع الأشجار قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠].

[٤] أنه لا جهاد في الإسلام مع وجود عقود الأمان والجوار، ويمثلها في هذا العصر الاتفاقيات الدولية والمعاهدات وما يقوم مقامها ما دامت معتبرة ومحترمة، وللفقهاء شروح طويلة حول (الهدنة والأمان والذمة) مع ملاحظة أن

---

(١) مشارع الأشواق، أبو زكريا بن النحاس، ص ٢١، (المقدمة).

الهدنة والذمة من أعمال الحكومات الإسلامية، أما الأمان فإنه من حق السلطة العامة وكل مسلم بالغ، عاقل، وغير المسلمين أربعة أنواع: (حربيون ومعاهدون ومستأمنون وذميون) والمخالفة في العهود تدخل تحت مظلة الغدر والخيانة لما ورد من نصوص، ولما للوفاء بها من أهمية في الإسلام.

[٥] النية منطلق الجهاد، وعليها يبعث المجاهد يوم القيامة، أما من يقاتل من أجل المال أو العصبية أو الشجاعة، أو من يفعّل الجهاد من أجل تثبيت وجوده الشخصي، وحماية مكتسباته السياسية أو مضاعفة دخل الدولة من أموال الجزية أو إشغال شعبه بعدو – ما – لكيلا يأكله أو يأكل بعضه بعضًا، فهو ليس في جهاد – وإن زعم ذلك –، قال عليه الصلاة والسلام: **(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...)** رواه البخاري.

[٦] أن الجهاد من الأعمال المنوطة بالدولة المسلمة فليس عملاً عباديًا فرديًا يقوم به المسلم كالصلاة والصيام والحج بل إنه كالفيء والحُكْم والجمعة، وعلى الحاكم المسلم تقدير المفاسد والمصالح المترتبة على الجهاد أو عدمه، وتوفر القدرة والمصلحة، وعدم الجهاد لا يعني إلغاءه أو موالاة الكفار، ولا شك أنه يجب نصرة المسلمين بالإيواء والدعاء والمواساة لقوله عليه الصلاة والسلام: **(انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا...)** رواه البخاري، أما النصرة العسكرية فلها شروطها بعد توفر الإمكانيات، وبعد ذلك فالجهاد «موافقة تدبير الحق وإلهامه فكان السعي في إتمامه سببًا لشمول الرحمة، والسعي في إبطاله سببًا لشمول اللعنة، والتقاعد عنه في هذا الزمن تفويتًا لخير كثير»[1].

---

(١) حجة الله البالغة، جـ ٢، ص ٧٨٦.

وما سبق يؤكد أن الجهاد من أهم معالم الإسلام، وأفضل خطوات المسلم و«من أصول الأديان، ولا يستقيم أمر المسلمين إلا به»[١]، وكل الدول لها جيوش وحصون، وقد أوضح النبي ﷺ هذه الحقيقة عندما قال: - (**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد**) رواه الترمذي، ولن ينقذ المسلم من تأويلات دعاة الجهاد وتراوحه بين طرفين إلا وسطية منطلقة من التصورات الست السابقة، يبت بها علماء ربانيون، وينفذها ولي أمر المسلمين، و«على المؤمن ألا يرهب الجهاد في سبيل الله، بل عليه أن يستشعر الجهاد دائمًا في قرارة نفسه، وأن يكون على أهبة الاستعداد متى دعا الداعي، يقدم العطاء اللازم في سبيل الذود عن دينه ووطنه على أي حال من الأحوال، إما ببذل النفس أو المال أو بعث روح الجهاد»[٢] أما من لا يطيق الجهاد سواء بنفسه أو بماله ولكنه مؤمن بوجوبه، يتطلع إليه بشوق وزفرة، فهو من المجاهدين إن شاء الله، وأما من يرى أهمية الجهاد، وأجره، وأثره في عزة المسلمين وتمدد الإسلام ولكنه يدرك أنه لا يتحقق له – لو قام به – من نكاية بالعدو أو نصر عليهم أو إعزاز للدين، أو تثبيت العدل والاستقرار فعليه أن يختار المهادنة حتى يتمكن ويقدر، والتضحية بالنفس – أو النفوس المسلمة – دون مصلحة تفريط وإفراط، فإن حقيقة الجهاد كامنة في إقامة الدين وحماية أرواح المسلمين وأعراضهم وعقولهم وأموالهم.

---

(١) الجهاد في سبيل الله أهدافه وأسبابه، د/ زاهر عوض الألمعي، مجلة البحوث الإسلامية، العدد التاسع.

(٢) الاجتهاد في طلب الجهاد (المقدمة) ص ١١.

أما الرضى باعتداء أعداء الإسلام على الإسلام والقرآن، والسخرية بالرسول ﷺ فليس من الإسلام، ولا من الوسطية، ولا المسالمة جائزة مع من أخرج المسلمين من ديارهم، وظاهروا عليهم، وفتنوهم في إيمانهم، وأعراضهم وأموالهم وجميع أسس حياتهم، قال الشاعر:

إذ لم يكن إلا الأسنة مركبا ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وإن وجود الجيش والروح العسكرية أمر حتمي لكل دولة تريد أن يكون لها مكان تحت الشمس، وأثر بين الأمم، والأمة المسلمة أولى من غيرها في هذا وأحوج.

الوسطية والخطاب الإسلامي

يحمل الخطاب الإسلامي في خطوطه الأساسية خصائص الإسلام، ولذا فهو – في مجمله – وسطي وفاعل ومؤثر ومتنوع، ومتعدد، ومباشر وغير مباشر، وتقليدي ومعاصر، وينطلق من العقل ويخاطب القلب، فيه الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والأمثلة والحكمة، والمجادلة والحوار، والمناظرة والمباهلة، والتورية والتعرية، يرفض – بشدة –، التقليد الأعمى، واتباع الهوى، وتهميش العقل، أما الخطاب الذي يصادر حرية الإنسان، ويقزم العقل، ويعتمد على الأسطورة، ويهيج العواطف، ويبتعد عن الواقع، ويدعو إلى القمع فهو ليس من الإسلام في شيء، وقد حقق الخطاب الإسلامي على أرض الواقع نجاحات متراكمة معاصرة في العديد من الميادين، واستفاد من تقنية الاتصالات وتمدد في الدوائر المسموعة والمرئية والمقروءة، ووصل إلى البيوت النائية والغرف المغلقة، ودهماء الناس، وحضوره جعله في عين الرهبة ومرمى الخصوم، وأصحاب الشبهات والشهوات في خوف دائم من صوت التدين الصحيح كخوف اللصوص من الأنظمة والعقوبات.

إن الخطاب الإسلامي مرآة الإسلام، والمعبِّرُ عنه، الموضِّحُ لتطلعاته، والكاشف لخصائصه، والمصوِّرُ لإعماقه، والممجِّدُ لماضيه، والمدافع عن حاضره، والممهِّدُ لمستقبله، وما استحق هذه المكانة إلا بخصائص عالية الجودة.. منها:

[١] أنه خطاب عالمي، لكل الأزمنة والأمكنة.

[٢] أنه إنساني، يخاطب المؤمن والكافر والأسود والأبيض والعربي والعجمي والعامي والمتعلم، ويفتح أبواب الحوار والتعارف للجميع، ويؤكد على العدل والإحسان، ويمتاز بالشفقة حتى على الحيوانات والنباتات.

[٣] أنه واقعي، يلامس حياة الناس اليومية، ويتدرج في الإصلاح، وينهى عما لا تدركه الفهوم.

[٤] أنه عقلاني، يدعو إلى التدبر والتفكر في آيات الله سبحانه وتعالى ومخلوقاته وما فيها من حكمة وحُسن خَلق وإعجاز.

والمحمود للخطاب الإسلامي العام المعاصر أنه – في مجمله – ليس موغلاً في الانغلاق، ولا متحرراً من كل القيود، وليس ساذجاً في أفكاره وألفاظه، وليس متقعراً في معانيه وكلماته، له أثر على عامة المسلمين، حيث ربطهم بدينهم، وقوّم أخلاقهم، وانتشل من بؤر الفساد ودروب الضياع الكثير منهم، وأبعدهم عن الغالب من المضار، وحماهم من المحرمات، وتغلغل في كل ميادين الإصلاح، ووصل إلى العامة والأميين، وخاطب غير المسلمين، حتى حقق نتائج ملموسة، مما دفع دولاً كافرة إلى الاستعانة به في إصلاح ما في سجونها من مجرمين، ودفع أخرى إلى التحذير من نجاحاته، وخطر أسلمة أوروبا بواسطته. والإعجابُ به من قبل بعض الكفار ظاهرة متواترة حيث وقفوا مبهورين من معالمه وقضاياه، وأسلوبه، ودخل العديد منهم في الإسلام بسببه، وبعضهم وضع الخطط من أجل ترويضه.

ونجاحاته تلك لا تلغي حاجاته الدائمة إلى تطوير أفكاره وأدواته وتنوعاته، أو استعانته بوسائل الاتصال المعاصرة، ومواكبته للتقنيات الجديدة المسموعة والمشاهدة والمقروءة.

ومن إشراقاته: مساهمته بتقديم حلول رائعة وعملية لمشاكل الحياة الاقتصادية والأسرية، ومعالجة الفقر، ومكافحة العنصرية، وكل ذلك بوسائل

معاصرة ولغة واقعية وأدلة عقلية، تضبط الغرائز وتستجيب للفطرة، وتجمع ما بين المادة والروح والحقوق والواجبات والدنيا والآخرة انطلاقًا من أنظمة دقيقة واضحة متكاملة لا تتصادم ولا تتناقض.

وهذا الجانب للخطاب الإسلامي المبني على الكتاب المنير والسنة المطهرة لا يلوّثه سلوكيات سيئة من بعض المنتمين إليه، إما بسبب جهلهم، أو عواطفهم الجياشة، أو تأويلاتهم الماجنة أو المغالية، أو محدودية علمهم، ففي كل عمل نواقص، ومن هؤلاء، وبسببهم - رغم قلتهم -، جاءت الدعوة إلى (الخطاب الوسطي) و(تجديد الخطاب الإسلامي) و(نقد الخطاب الديني) وهذه العناوين تنطلق - أولاً - من نيات أصحابها، ومحاورها جيدة إن كانت أسسها ما يلي:

[١] تحديد حدود الخطاب الإسلامي المنطلق من الكتاب والسنة مع غيره من الخطابات الأخرى، وعدم الخلط بين الخطاب الإسلامي المعبِّر عن حقيقة الدين وبين اجتهادات البعض، المعبِّر عنهم وليس عن الإسلام، والناقد يجب ألاّ يفصل بين الخطاب الإسلامي ومكانه وزمانه وجمهوره والملقي.

[٢] أن الخطاب الإسلامي يشمله التجديد الذي بشَّرَنا به عليه الصلاة والسلام «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» أخرجه أبو داود والحاكم، فهو امتداد للإسلام في روحه وامتداد للمسلمين في حركتهم، وله دور كبير في انتشار الإسلام، والإصلاح الديني والسياسي والاقتصادي، فالخطاب من أهم وسائل التجديد، والواقع يشرح الحديث بخطوات عملية أبلغ من الكلمات، وأفضل خطوات تجديده تطابقه مع خطوات تجديد الإسلام، ومنها رفع الوصاية عنه من قبل المستفيدين والخائفين منه،

وتحريره من الاحتكار والنظرات الضيقة، وتفاعله مع العصر، ومخاطبته لكل الشرائح المختلفة والمخالفة.

[٣] إن المراجعات والنقد من المطالب الشرعية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

وتقع كامل المهمة على علماء الأمة، قال الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله –: «يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، يُنْفُون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين»، أما الجزء الثاني من نقد الخطاب الإسلامي فجاء من خارج الحدود، من فئة همها – فقط – الخطاب الديني، لسبب ما، أما الخطاب السياسي أو الاقتصادي أو التربوي فهو خارج دائرة الملاحظات، رغم الفشل الذريع المحيط بها، وغيابها الملموس والصريح عن كل الساحات.

[٤] إلمامه – الخطاب الإسلامي الوسطي – بالخطوط الأساسية لمقاصد الشريعة، وفهم النص وحجيته، وعلاقته بواقع الأمة ومصالحها؛ لكي يسهم في التنمية ويجمع ما بين الواجب والواقع.

ولا شك أن بعض المسارات من الخطاب الإسلامي أثرت على توازنه، خاصة الخطاب الإسلامي السياسي، فانعكس على الخطاب الجهادي والفكري، وأسباب هذه الزلة هي:

(أ) الانتماء المفرط للاتجاه أو الطائفية أو المذهب والسلطة، متجاوزًا سماحة الإسلام وعدله ورحمته وإنسانيته وعقلانيته.

(ب) عدم البت في مفاصل فكرية معاصرة من قبل الرواد المسلمين المعاصرين كـ(الدولة الدينية) و(الحاكمية) و(الديمقراطية في المجتمعات

الإسلامية) و(أهل الحل والعقد) و(الإضراب) و(الخلافة) وضوابط الشورى العليا، والحكم الرشيد، وادعاء التنافر بين الهويتين الدينية والوطنية، وكأنهما في صراع، والعلاقة بين الفقيه والسياسي.

(جـ) ضغط بعض الحكومات على رواد الخطاب الديني بالترغيب والترهيب، وتحويل الإسلام إلى تابع للسياسة وسلاح للسلطة، فالخطاب الإسلامي يجب أن يتحرر من ضغوط المجتمع والسلطة والواقع، والضغوط الخارجية، لكي يكون معبراً عن نفسه، صادقاً في شهادته، ثابتاً في سيرته وسريرته، متعانقاً مع هدفه الحقيقي، مراعيا تلك الضغوط، ومتعاملاً معها تعاملاً تفاعليًّا واقعيًّا.

(د) تمادي دول كبرى في استهداف الإسلام والمسلمين رغم كثافتهم السكانية ومواقعهم الاستراتيجية وإمكانياتهم، ومحاولتها، أو استيلاؤها على ثرواتهم، وتحكمها في بعض قراراتهم، وسعيها في تشكيل المجتمعات الإسلامية وصبغها بطعم وألوان وروائح بعيدة كل البعد عن دينهم، مما جعل ردة الفعل تتراوح بين الاستسلام والمقاومة، فانعكست كأمراض مزمنة على جانب من جوانب الخطاب الإسلامي، بل إن الأمر تجازو ما سبق، فقد اتهمت مؤسسة (راند) الأمريكية الخطاب الإسلامي بإجهاضه للفكر العلماني، وتجذيرة للقيم الإسلامية مما يستدعي خططا ومواقف تعيقه أو تخرجه عن مساره!! وقد عقدت بعض المؤتمرات المشبوهة حول تجديد الخطاب الديني بمقاييس غربية، ودعاوى تجديده من غير المسلمين إنما هو حق أريد به باطل، والتفاف على الدين بالدين، ومن مطاعنهم اتهام الخطاب الديني بالغيبوبة والبعد عن الواقع،

وزعمهم ذو رنين وإبهار، ولكنه عند التفكيك والتحليل يتضح أنه لا يحمل معاني حقيقية إلا إذا كان النمط الغربي هو الواقع والمصدر، والخطاب الإسلامي الموجه للغرب يتحمل الكثير من واقعه المؤلم لأن وسائله وأسلوبه في تلك المناطق لم يصل مستوى ثقافتهم، ولم يصل - رغم روعته - إلى عامتهم، ولم يعبر عن جوهر الاسلام، وجاء عرض المسلمون للإسلام في غالب خطواته بالمواصفات التالية :

[١] أنه مبتور عن روح الإسلام، وعلميته وعقلانيته، وانسجامه مع الفطرة، فظهر وكأنه دين العبادة والحدود، دين اللحية وقطع يد السارق، والحجاب، وتم الانشغال بهذه المفردات على حساب الجوهر.

[٢] أنه خطاب يعبِّر عن ما بعد الإسلام وليس الإسلام نفسه، يعبِّر عن المذهب و الاتجاه والطائفة، وبرز ما يسمى - ظلماً - الإسلام المالكي، والإسلام الإيراني، والإسلام الوهابي، والإسلام التبليغي، إلى آخره...

[٣] أن الداعين إلى الإسلام قدموا الكثير منه بعيد عن التطبيق العملي، ثم جاءت الشعوب الإسلامية مع الحكام لتضيف شيئًا من التشويه والإساءة، من خلال تأخرها وخلافاتها وأنواع الفساد فيها.

(هـ) ما سبق تمخض منه: تيه لدى شريحة صغيرة ولكنها فاعلة، وخلل في فهم النصوص عند البعض منهم، تولد منه أخطاء في إنزالها على واقع الأمة، وتداخلت الثوابت الشرعية مع التطلعات القومية والوطنية، واحتكار الحق من بعض الخطباء، أو الادعاء بأن ما يقولونه أو يفرضونه هو قوانين الله سبحانه وتعالى، والبعض الآخر دعا إلى عزل الإسلام في المساجد، وحصره في

العبادات وفصله عن أمور الحياة العامة، ومن هذا الاعوجاج النادر والمتنوع اتهمهم خصومهم بأنهم أصحاب شعارات مجردة وآراء متعددة، لا تستطيع أن ترتقي بالمجتمع، أو أن تحرك عملية البناء والتنمية، كادعائهم أن (الإسلام هو الحل) دون أن يُفَصِّلوا الأمر أو يُحَوِّلوه إلى واقع أو يطبقوه على أنفسهم.

ولن ينجح الخطاب الإسلامي النجاح التام إن لم يعانقه تنمية تؤكده، وتشير إلى قدراته وتمكنه، وموقف سياسي قوي، وأمة متكاملة تحمله وتحميه، ووسائل متنوعة وحديثة، وإن كان (الإسلام هو الحل) فلماذا المسلمون في أزمات، ومن أزمات إلى أخرى؟ وإن كان الإسلام أفضل نظام عرفته البشرية فلماذا المسلمون دائماً في مؤخرة الركب؟ وفي العتبات الأولى من سلم العلم والتقنية، وهم عالة على غيرهم؟، أسئلة مهمة، على الخطاب الإسلامي أن يقدم الإجابات الحقيقة لها.

(و) المفاجأة أو الصدمة الحضارية، والانفتاح المباشر من غير مقدمات، وقلة التجربة في التفعيل المعاصر لمنهج الحوار الإسلامي، وعدم تطبيق شعار "التعارف"، واستيعاب حقيقة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦]، أصابت خطاب المسلمين بمقتل.

(ز) تأخر المفكر الإسلامي الواقعي في أداء دوره الموازي لدور العالم والفقيه، إما تواضعاً منه أو خشية على مستقبله، أو رغبة في السلامة، أو بسبب حصارٍ ما مع ملاحظة أن المفكرين وجدوا أنفسهم – بعد الهزائم السياسية في فلسطين وحرب الخليج وعنجهية الدول الكبرى - أمام مجتمع تقليدي متأخر وتسلط حكومي، ورؤية تتجاذبها عدة أطراف، فتزحزح شيء من الخطاب

الإسلامي عن وسطيته، والأصل أن يتشبث بأصوله، فمحاولة الغرب تطوير العالم الإسلامي، ونشر الديمقراطية فيه، ودعمه، وإصلاحه، ومعالجة بعض قضاياه، هي تعرية للمسلمين، ودليل – عند البعض – على غياب الخطاب الإسلامي الصحيح، وعند البعض الآخر أنه مؤشر قوة وتمكن، حيث أغاظ خصومه وسعوا إلى اختراقه.

وهذه الأسباب تتضح في عدة قضايا في مقدمتها الموقف من الكافر داخل المجتمع المسلم وخارجه، وهو في الحالتين إما مسالم أو عدو، وعلى وجه الإجمال جاء الخطاب الإسلامي – أولاً – يدعو إلى التعامل معه بالحسنى ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] والجدل معه بالتي هي أحسن: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] والعدل في التعامل معه ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] أما هدايته فليست من خصائص الرسل والأنبياء ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : ٥٦] و﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [النحل : ٣٧] ومع هذا فغير المسلم له نصيب من الخطاب الإسلامي، ويلتقي مع المسلم في الصفات التالية: –

[١] أنه إنسان، ينتمي إلى البشرية التي تشكلت من الأب (آدم) والأم (حواء) وليس من خصائصه التفضيلية: لونه أو عرقه أو لغته، وأنه داخل في عموم التكريم الإلهي الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾، حيث جعله الله محلاً للتكليف والاستخلاف.

[٢] أن لـه إرادة وعقـلاً وحريـة، ولا يجوز مهمـا كانـت المبررات سـلبها أو تعطيلها أو التقليل من شأنها.

[٣] أن الاختلاف والتعارف بين البشر لازمة من لوازم الحياة، ومن خلالهما يولد التعاون والتنافس، وبهما يتم عمارة الأرض والتعايش.

أما في واقع الأمة الإسلامية فغير المسلم عند البعض – وهم قلة – عدو يجب قتاله والحذر منه وعدم الإحسان إليه، وعند البعض الآخر أنه عبقري متميز منتج يجب تقليده واتباع خطواته حتى في الأطر الخارجة عن العلوم المادية، وإن ترتب على ذلك ضياع الهوية الإسلامية، وتغلغل القابلية للاستعمار في نفس المسلم، والقتل المعنوي، واتباعه غير المسلمين و«لو دخلوا جحر ضب» رواه البخاري ومسلم، فالخطاب الإسلامي بحاجة إلى من يستخرج الأحكام المعاصرة من النصوص، ويصل إلى المعاني الدقيقة الخفية فيها، أكثر من حاجته إلى الحفاظ عليه وحفظه، ومن أهم خطوات هذا الأمر:

(أ) فهم النص الشرعي.

(ب) الإحاطة بالقواعد الأصولية.

(جـ) إدراك واقع الأمة.

(د) الاندماج التفاعلي مع مقاصد الشريعة.

ومن المتفق عليه أن المسلمين إذا تركوا لغيرهم تطوير خطابهم الإسلامي، واختار – الغير – وسطيته وقضاياه وأسلوبه وحجم انفتاحه فإنهم سيستيقظون وقد تحول خطابهم الإسلامي إلى وسيلة في يد المسلمين تعبر عن أفكار ليست لهم، وهوية مستوردة، ومبادئ خارجة عن ذواتهم، وهم – في هذه الحالة –

خرجوا من محورهم ولن يكونوا أصلاء في الدائرة التي دخلوا فيها، - هذا إن دخلوها -، وقد يتمادى الغير فينتقل من نقد وسائل الخطاب الإسلامي ولغته ومواضيعه إلى نقد الإسلام ذاته، وكأنها مراحل، وإحلال وسطية غريبة تتكامل مع دعوات الإصلاح الخارجية، ونشر الديمقراطية - وفرض النمط الغربي على المسلمين - وعلاج هذا الأمر يكمن في مشروع إصلاح داخلي.

وحقيقة الوضع - ولله الحمد - تكمن في أن أمراض بعض خطابات المسلمين محدودة، ولا تصل إلى الشرائح الكبرى للقضايا، وإن علت على السطح وتحدث عنها الإعلام المعادي والمستغرب، أو وجدت المؤتمرات والندوات المشبوهة التي تنتقدها، أو تم إبراز الأصوات النائية.

ولو أراد هؤلاء الإصلاح الحق، وإنقاذ الأمة لكانت جهودهم في بعث (الخطاب السياسي) من مرقده، وتفعيل حضوره، ومطالبته بحمل هموم المجتمعات والشعوب وإبرازها وتأكيدها، وانطلاقه من مصادر الإسلام ومراجعه هي محور لقائتهم، وتحريكهم لقضايا التهجير والقتل اليومي للمسلمين في الكثير من الأمكنة، وتحولها إلى أحداث معتادة!!، ولما أصبحت مواضيع الإسلام والمسلمين - على المستوى العالمي - مجهولة وخفية، حتى تحوَّل/ شارون إلى بطل السلام !!، وأين هؤلاء - أيضا - من (الخطاب العلمي) وإحياء مراكز البحوث والترجمة، وتصنيف الجامعات الإسلامية؟! وأين هؤلاء من (الخطاب التنموي) ومكافحة الفساد، ودعم محفزات العطاء، وحفظ المكتسبات؟! وأين هؤلاء من الخطاب السياسي وإحجامه عن تعرية الكيان الصهيوني في ميادين حقوق الإنسان، واضطهاد الأديان،

وسعيه في الحصول على أسلحة الدمار الشامل، وبناء ترسانة نووية كبيرة واستهزائه بكل قرارات الأمم المتحدة؟!

والحقيقة الأخرى أن الوسطية المطلوبة لخطابنا الديني هي وسطية الإسلام، والتي يعرف علماء الأمة المعتبرون أسسها وحدودها وزواياها، فالخطاب الإسلامي متنوع ومنفتح ومرتبط بأصوله على وجه العموم، خاصة في تواصله مع أفراد الأمة، ودخوله البيوت، وحديثه عن المسائل المهمة، وتأثيره، ومسيرته التاريخية شاهد لا تُفَلُّ قناته، ودوره – المهم – في بقاء الإسلام وانتشاره دليل على نجاحه وقدراته، والإشكالية الكبرى في تقييمه من قبل السياسي والمؤدلج والمستغرب، حيث أبرزوا زاويتين:

الأولى: إسقاطهم لجزئية منه - نائية عنه - على مسيرته، وكأنها كل الخطاب الإسلامي، والاستشهاد بها في كل حوار، وإنزالها – بدون بسملة – على المراد تشويهه.

الثانية: رغبة أطراف معاصرة توظيف الخطاب الإسلامي لمصالحها أو لفهمها المحدود، أو لضغط الواقع، واستثمروا – أحيانًا – مؤتمرات وندوات عن (الخطاب الإسلامي) إلا أنهم لم يحققوا كل ما يريدون، وربما جنوا ثماراً مخالفة لبذورهم بسبب مراقبة الرأي العام الإسلامي، ومشاركة العلماء الربانيين، والحوار الحر، وانتشار الشفافية في وسائل الإعلام المتنوعة، وارتفاع وعي العامة.

ومنهما تدحرجت وسطية الخطاب الإسلامي في جزئية صغيرة منه، ولكنه – وبسبب روعة الإسلام – بقي في مجمله متماسكًا بخصائصه وسوف تعود

العافية إلى العاطب منه، فالوسطية لها دورها الملموس في تقويمه، ومهامها لا تتحقق من خلال الضغوط الخارجية، أو في يوم وليلة، بل تنطلق من الداخل، ومن الإسلام نفسه، ووسطية الخطاب الإسلامي لا تعني إضافة ثوابت أخرى إليه، أو حذف بعض المتفق عليه، إن المهمة تتجه إلى الاستفادة من الوسائل المعاصرة، وتوليد المعاني من النصوص المثقلة بالخير والإصلاح، واستثمار علم الطاقة البشرية والإبداع والتأثير وفن الاتصال، وتطبيق التيسير الإسلامي على أرض الواقع، وتوسيع دائرة الاستنباط، وتأمين نخب فاعلة مستقلة بعيدة عن إلقاء الإثم على الآخرين، وعن العواطف، وعن الاستعلاء، وبعيدة عن تخدير الماضي الذي لا يمتد إلى الواقع ولا يسهم في تحريكه.

ولا شك أن بيد الوسطية زمام المبادرة والانفتاح والشجاعة، وسوف تؤدي بالمسلمين إلى رؤية معاصرة مؤصلة، تحقق - إن شاء الله - التأثير والقبول في جميع مناشط البناء والخير، وتأخذ الخطاب الإسلامي العام إلى الاتزان، وتفتح نوافذه على العقلنية والعلمية والعاصرة، وتنمّي الانسجام مع الفطرة السوية، والانطلاق من الأصالة، فالعالم بأمس الحاجة إليه، إنه ينتظره.

الوسطية والحركات الإسلامية

إن الإسلام في أسسه الواضحة الثابتة، وفي خطوطه الأصيلة المستقيمة، وفي قواعده ولبه ومجمله إسلام واحد متفرد، ينطلق من الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وهو أكبر من التقسيمات، وأوسع من تصورات الطوائف والمذاهب والتيارات والمدارس، وأروع من أن يعبِّر عنه شخص، أو يتجسد في آخر، فيقيده في حد مكاني أو ظرف زماني، أو مرحلة اجتماعية، فيتعرض – حينئذ – للتمدد أو الانكماش، وللزيادة أو النقص، وربما تمزقت مجتمعات، ووقع بعض المسلمين بين أنياب التصنيف والتصنيف المضاد:

أنت معي... أنت قديس.

أنت ضدي.. أنت إبليس.

فيكون في تربة سيئة ملوثة لا تساعد على تنمية ولا ينمو فيها خير، ولا تتجه إلى الأهداف الكبرى، قال الشاعر:

شيعاً وأحزاباً وما جمعتهم محن الزمان وشدة الأهوال

وأصحاب الحركات بنوها على اجتهادهم ورؤاهم مع شيء من الإسلام، ولكن يبقى فيها أثر ممن عبر عنها، سواء كان صاحب علم واجتهاد، أو حركة وعاطفة، ومع هذا يقال للغالب من هؤلاء ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ٩١] ويقال للمنتقدين لهم:

لا تقل عن عمل ذا ناقص جيء بأوفى ثم قل ذا أكمل

ورغم أن المجتمعات الإسلامية المعاصرة تعاني من تمزق مذهبي وطائفي، وفيها الكثير من الفرق والتيارات، فهي –إن كانت حركات متآلفة – يكمل

بعضها بعضًا، متعاونة على البر والتقوى، وتلتقي – جميعا – حول أصول الإسلام لاشك أنها ظواهر اجتماعية رائعة ولازمة تعبر عن الغالب من الإسلام، وقوة للمسلمين.

أما إن كانت متنافرة، تحتكر الإسلام، وتعتمد على جزئية، وتضيّق واسعًا، ويكفر أو يفسّق يمينَها شمالَها، فهي أمراض اجتماعية مزمنة تسيء إلى الإسلام وتفتح – مع الأسف – منافذ واسعة لأعداء المسلمين من أجل اختراق المسلمين وضرب بعضهم ببعض، وإضعافهم والوصول إلى بيضتهم، وجريمة كبرى ليس بحق الوسطية فقط بل بحق الإسلام والبشرية جمعاء أن تقوم شريحة مسلمة لها إمامها أو شيخها فتؤمن بعصمته وسداد رأيه، وكمال دعوته، وتجعله باب الإسلام الوحيد، وتحاصر من يتجرأ على نقده، أو إصلاح عبارته، والتقليل من علمه، أو الأخذ من غيره، فمنهجية هؤلاء واستبدادهم لن نجني منها التسامح ولا الوحدة والألفة والمحبة، وهم نصال حادة في خاصرة الاتزان والعدل، وخطوة من خطوات التفكك والضعف والهزيمة، وسهم من السهام الشيطانية.

والمجتمع الإسلامي الأول احتضن طاقات ومواهب وقدرات، فَرِقَّة الصديق التقت مع شِدَّة الفاروق، وتجارةَ ابن عوف – رضي الله عنه – دعمت عِلْمَ أبي هريرة، وجهادُ ابن الوليد يتعانق مع شعر حسان بن ثابت رضي الله عنهم، ولم ينكر بعضهم على بعض، ولم تعارض فئة فئةً أخرى، وتحقق لهم الحضور المثمر في كل شبر ولحظة، وتأكد فيهم روعة التوازن والانسجام والتكامل في شؤون الحياة.

والأمة الإسلامية في هذا الزمن موزعة على اتجاهات إسلامية - كثيرة إلا مَن رَحِمَ ربي -، كل اتجاه فرح بما لديه ساخر بما لدى الآخر، ولو وضعنا الاتجاهات الإسلامية المعاصرة في مواقعها الحقيقية من الإسلام، وضمن ضوابطه وشروطه لوجدناها ظاهرة صحية، في دائرة الوسطية المفعمة بالأريحية والعطاء والتكاملية فيما بينها، وكل اتجاه على ثغر من ثغور المسلمين، ينطلق من تخصصه وإمكانياته ورؤاه، فالاتجاهات الإسلامية المعاصرة، وما قبلها، تبقى درجات استيعابها للإسلام متباينة، ويبقى التزامها بالضوابط مختلفًا، وتعاملها مع الدليل محدودًا، وتطغى – أحياناً – عليها مستو ى العلم ورياح الهوى، وتنوع العقليات والنفسيات والمكان والزمان، وأثر التقاليد والعادات، وقد تكون في أقصى اليمين أو في أطرف اليسار، وبعضها يلتزم الوسط، وينأى عن التحريف والتجديف، وتبقى – سواء أكانت اتجاهًا أو تيارًا أم حزبًا أم حركة – جماعة من المسلمين، ومكانتها وقوتها واستمرارها ونجاحها بحجم قربها من الحق وتطبيقها له.

فأصحاب (العقيدة) الصحيحة ينافحون عنها ويبينون تفاصيلها ويضعونها في مكانها المناسب، دون أن تمتد أيديهم وألسنتهم وقلوبهم إلى اتجاهات إسلامية معاصرة أخرى تتعانق معهم في الأسس، وتعمل في زويا أخرى.

وأصحاب (التربية) لهم دورهم المهم في هذا العصر، وهم في جهاد من أجل احتضان الجيل المسلم وتربيته على القيم والصبر، وكشف ملامح العدو وخصائصه وكيده، وغرس المضادات المعنوية في المجتمع للدفاع عن أسس الإسلام وهوية المسلمين.

وأصحاب (الفضائل) قدموا نموذجًا حيًّا للإيثار واحترام المسلم، وهَدَى الله على أيديهم خلقًا لا يحصيهم إلا هو سبحانه وتعالى، وفَرَّغوا أنفسهم للدعوة في الكثير من الدول والمجتمعات، ووصلت صورة الإسلام الأخلاقية إلى العديد - بواسطتهم - من المسلمين وغيرهم.

وأصحاب (السياسة) قدموا البيانات والكتب والمواقف المعبرة عن جانب من جوانب الإسلام، واستطاعوا أن يضعوا بُنْيةً أساسية ودستوراً مقترحا ورؤية في العلاقات الدولية تشكل - فيما بعد - خطوة مهمة للدولة الإسلامية المتكاملة القادمة.

وأصحاب (الاقتصاد) انطلقوا من البحوث والتنظير إلى العمل والتطبيق، وأصبح (الاقتصاد الإسلامي) رقمًا فوق التهميش، وحالة مرئية تسللت برفق ولين إلى النشاط الاقتصادي في الكثير من العواصم الأوروبية، وخطواتهم جزء مهم يشدّ مسيرة المسلمين المعاصرة نحو الحضور العالمي.

وأصحاب (اللغة العربية) ما زالوا يقدِّمون الدراسات، ويضعون مناهج تعليم اللغة العربية للعرب ولغير الناطقين بها، ويستثمرون التقنية والنظريات التعليمية المعاصرة، وهم في خطواتهم المباركة ييسرون الألفة بين المسلمين، ويجمعون العرب على لغة موحدة سهلة، ويطردون اللهجات العامية النابية برفق وتؤدة، حتى تحول التفاهم بين الخليجي والمغربي إلى شيء ملموس، وأفضل مما كان، وهم في طريقهم سائرون، وإن كانت أهدافهم بعيدة، ودروبهم طويلة وإمكانياتهم متواضعة، ولغة الغرب تجتاح معاقلهم وحصونهم، والقرار السياسي بعيد كل البعد عن معاناتهم.

وأصحاب (التقنية) كدحوا حتى قَدَّموا الكثير من التراث والعديد من كتب الأصول الإسلامية إلى العالم بلمسة مفتاح، واستطاعوا بناء منظومة – وإن كانت محدودة – من القنوات الفضائية، وأدخلوا محاسن الإسلام وجمالياته إلى غرف النوم في زوايا الأرض، وإلى أمكنة نائية في وسط الصين، وأطراف فيتنام وسفوح الجبال اليابانية، والوجه الآخر من دعاة التقنية شقوا طريقهم إلى التعمق بها والإمساك بزمامها، ورفضوا – ولله الحمد – جميع الإغراءات في توظيف عقولهم خارج محيطهم، وتحملوا الأجواء الحارة والتضاريس المؤذية من أجل دينهم وأرضهم وإخوانهم معتقدين أن البدايات تحتاج إلى التضحيات...

والقائمة تطول، ويبقى أنها إن انطلقت من وسطية المسلمين النابعة من وسطية الإسلام فإنها سوف تكون مؤشرًا قويًّا على أن (المستقبل للإسلام)، خاصة إذا التزمت بالقواعد التالية:

[١] أن تكون أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ما دامت أنها رفعت شعار (المشروع الإسلامي)، ومن خلاله تعمل في الميادين السياسية والإصلاحية والتغييرية، وتحدد أهدافها ووسائلها، وتوحد الرؤى، وتعرف عدوها الحقيقي، وألاّ تغيب عنها «موازين الوسطية الإسلامية الجامعة، سواء أكان ذلك في الفكر أو الممارسة لدى هذه الحركات»[١].

[٢] أن لا ترى نفسها – ومن خلال محورها – أنها تمثل الإسلام ولكنها تعبر عن جزئية منه، فالإسلام أكبر من أن يحمله اتجاه شعبي واحد، مهما بلغ من قوة التفكير، والإحاطة بالحاضر، والتطلع إلى المستقبل، ولا تجعل محورها

---

(١) الحركات الإسلامية رؤية مستقبلية، ص ٣٢٩.

المتواضع ركناً من الأركان الإسلامية، أو واجباً وهو سنة، كأن يكون الخروج في سبيل الله للدعوة أهم من رعاية الأهل وبرّ الوالدين أو أحدهما.

[٣] أن تنطلق في علاقاتها مع الاتجاهات الإسلامية الأخرى من دائرة التكامل في العمل والمساواة في الميدان، ولا تشغلها الجزئيات، أو تجنح إلى العنف[٢].

[٤] ألاّ تلزم المنتمين لها بـ (الولاء والبراء) فيها، وتنزّل هذا المصطلح المقدس الكبير على اتجاه وَضَعَ أسسَه شخصٌ، وسار منطلقًا نحو نصرة الإسلام، بما يملكه من أدوات متواضعة وعلم قليل ورؤية محدودة؛ لكي تكون استراتيجيتها العليا تصب في صالح جميع المسلمين وليس المنتمين إليها فقط.

[٥] ألاّ تتجاوز تخصصها، وأنها وسيلة، وللمسلم فيها الكرامة والحرية قبل أن يؤخذ منه الانتماء، وعليها ألاّ تفتي في المسائل الكبرى، وألاّ تخلط بين التوعية والإفتاء، ولا تقوم بدور الدولة إلا إذا كانت غائبة، وجاءها القبول من الأغلبية المسلمة المحيطة بها.

[٦] الاتجاهات المعاصرة، والآراء الفكرية الحديثة، والحركات والتيارات والتوجهات، من عطاءات المسلمين، والجيد منها مفخرة للأمة الإسلامية؛ لأن فيه صوابًا وخطأ، ومفضولاً وفاضلاً، ونقدها من أجل الهدم أو أخذ مكانها أو الانفراد بالحق والزمان والمكان لا يتلقي مع منهج الإسلام.

[٧] إن الإسلام يغرس في المسلمين مضادات تَحُوْل بينهم وبين الظلم، ويؤكد لهم استحالة الإلمام بالعلم، ويدعوهم إلى التزود الدائم منه، والاستعانة

---

(٢) الحركات الإسلامية رؤية مستقبلة، ص ٧٣.

بالله في سعيهم إليه، وقبول الحق من كل أحد، والتفريق في المعاملة بين الظالم والجاهل، وينهى عن معاقبة من يتعدى حدود الله في التكفير والتفسيق بالتكفير والتفسيق.

إن بعض الحركات الإسلامية بالغت في تحقيق الانتماء لها، أو هي – أحيانا – حزب سياسي لبس الثوب الديني ؛ لما له من أثر على الرأي العام والشارع الإسلامي، أو دخلت دروبًا لم يحن دخولها، كالجهاد والعمل الانقلابي والتجديد، أو غير ذلك، ومنها من يؤمن بالشورى ولا يعمل بها، ومنها الدكتاتوري، ومن المنزلقات المميتة أن يجعل المسلم رأيه أو حركته أو طائفته امتداداً للإسلام فيلبسها قداسته وصحته واستمراره، وكماله وشموليته وتمامه، وفي كل الأحوال تبقى الوسطية والتوازن والاعتدال معالم مهمة تَلُمُّ الكثير من الأطراف، وتُؤَصِّل للعمل بحكمة وصبر، وتحفظ المنطلقات وما بعدها من مكاسب، والموضوعية من ثمار الوسطية، حيث تقود المسلم إلى القول للمخالف الكافر ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] وهي مع المسلم ألين، وما بليت الحركات الإسلامية بشيء كابتلائها بجني الثمار قبل أوانها، والإفراط في الحب للحركة أو زعيمها، والمبالغة في التوجيه والتربية، والتشدق بالحزبية، والشعارات التي لا تطبقها، أو الظهور بخصائص تميز هذه الطائفة عن غيرها، كملابس العلماء والقادة، خاصة في ألوان العمائم وشكلها وطولها، وقد تصل إلى المساجد، فيكون لبعضها آيات قرآنية معينة، ورسوم وألوان تشير إليها، مع أن الثابت في السيرة النبوية أن الأعرابي إذا دخل على رسول الله ﷺ وهو بين

أصحابه رضي الله عنهم يكاد لا يعرفه، بل يسأل – كما في كتب السنة – أيُّكم محمد؟

والوجه الآخر للحركات الإسلامية يبشر بالخير، ويؤكد أن الأمة الإسلامية حاضرة هنا أو هناك، فقد جاهدت واجتهدت، ووقفت بالمرصاد لكل عابث بالمقدسات، وردت بدين وعقل على الكثير من الشبهات، وأوجدت مضادات معنوية لكل نداءات الشهوات والتزييف، وقدمت للمسلمين – وغيرهم – منظومة فكرية متماسكة، وثقافة إنسانية واقعية، وأصبح الإسلام – من خلال هذا الجهد – حاضراً حتى في المؤتمرات الدولية، خاصة فيما يخص حقوق الإنسان، والمرأة، واحترام الأديان، والحوار، وحق الدفاع عن النفس، وكرامة الإنسان وحريته، إلا أنها تعاني في داخلها من نقص في الاتزان والوسطية، فلن تكون – بأي حال من الأحوال – كالأصل، ونقصها متباين بين الحركات، وتختلف من ظرف إلى آخر، ومن قضية إلى أخرى.

الطائفية:

والطائفية وجه من وجوه الانشقاقات السيئة في الأمة الإسلامية، ومنعطف مؤلم، يشير إلى غياب الوسطية والاتزان، وهيمنة أصحاب التأويل الأسطوري، والمبالغة، ومخاطبة العواطف، وإلهاب قلوب العامة بالشعر، والمناسبات، وتتويج الاجتهادات بالقداسة، والاتكاء على التفسير الغيبي، والعصمة أدت إلى وضع فئة معينة من آل البيت في محور الحياة، وحكمة خلقها، وسرّ استقرارها، ونقطة نهايتها وبدايتها، ولو تم عرض معركة (كربلاء) وتورماتها المتراكمة على الوسطية منذ استشهاد الحسين رضي الله عنه إلى يومنا هذا لوجدناها مصدر خير، مثقلة بالمواقف الإيمانية، والمسائل الفقهية، والقضايا

الفكرية، ولم يعلق بها أساطير وأحقاد وتهم ومظالم، ولم تتحول إلى طائفية نتنة تمزق الأمة، وتحركها - في الغالب - أصابع خارجية، والعدل والاتزان يفرض على الجميع الوقوف أمام الإيضاءات التالية:

(أ) من آثام الرؤية الاستخفافية لما حدث في (كربلاء) من زاوية النواصب المتشددين، والمبالغة في إبراز الحدث من زاوية الروافض الغلاة أنها رسمت صراعاً وهمياً بين حق مطلق وباطل مطلق، لا يستسيغهما الدين الحق، ولا العقل النير، ولا الفطرة السليمة، تمخض منهما ألم ممتد، وإسقاط الجريمة على كل ألسنة في كل الأزمنة والأمكنة، وكأنها فعل جماعي قامت به الأمة كلها وعليها جميعاً كل الوزر.

(ب) إن تهميش دور (الحسن) والتغافل عن عام الجماعة، وتضخيم معركة كربلاء، واستشهاد الحسين رضي الله عنهما ظلم للأول وإرهاق للثاني، وهما في غنى عنه، وعلى الأمة ألاّ تتجاوز في مواقفها موقف آل البيت وعلمهم وحكمتهم وصبرهم وفتاواهم، وعلاقتهم بالأصحاب، وما بينهما من إعجاب ومصاهرات وأسماء مشتركة رضي الله عنهم جميعاً.

(جـ) إن خروج الحسين رضي الله عنه لم يكن من أجل شريحة صغيرة من المسلمين، أو دفاعاً عن بيت النبوة، أو تأصيلاً لطائفة - ما - لها خصائصها وسماتها، إنه رضي الله عنه خرج من أجل أمة جده - عليه الصلاة والسلام -، ولم يكن يرى نفسه أنه الأول، ولكن وجد أنه قادر على أن يفعل شيئًا ما.

(د) إن الوحدة لازمة من لوازم الأمة الإسلامية، والآل والأصحاب رضي الله عنهم مثال يحتذى به، ونموذج يشار إليه في هذا الميدان، ومحبة آل البيت والصحابة ثابتة في مصادر السنة ومراجعها، ومن الأعمال العبادية، ولذا جاءت دعوة ابن

عباس رضي الله عنهما للحسين رضي الله عنه أن ينطلق من اليمن في تحقيق مشروعه لما فيها من محبِّين صادقين، واقتراح عبدالله بن الزبير رضي الله عنه على الحسين رضي الله عنه أن يبقى في الحجاز، فهي آمن له من العراق، ومحاولات عبدالله بن عمر رضي الله عنهما إقناع الحسين رضي الله عنه بالعودة، واستنتاجه بأن الإمارة رجس، وإن آل البيت مطهَّرون منه، كل هؤلاء - وغيرهم من أمثالهم - لا يشكُّ عاقلٌ بأنهم خير للحسين - رضي الله عنه من عشرات الآلاف من رسائل العراقيين التي تحولت إلى سراب، دفع الحسين رضي الله عنه حياته ثمناً لها، وعليهم - مع من قتله - وزر الجريمة المؤلمة، والحدث الجلل.

فليس من الوسطية أن نختزل الأحداث، ونضع قتال الآل مع الأصحاب هي المنعطف والركن والمحور، وقد تقاتل الأصحاب مع الأصحاب، والأصحاب مع الآل، واختار العزلةَ فئاتٌ من هؤلاء وهؤلاء، ومن المؤكد أن الطريق إلى الألفة بين الطوائف الإسلامية ينطلق من العدل والاتزان والوسطية، والجميع بحاجة إلى لقاءات علمية يتدارسون قضايا الخلاف، ومواضيع التقاطع، ويحققون تاريخ الآل والأصحاب، ويسبرون زوايا المواجهة، ومحاور الاجتهاد، والموقف من الحكام، ومن خدع من؟ ومن غدر بمن؟ ومن بكى على من؟ ومن أخلص لمن؟ فالأمة ضعيفة بدون توحيدها ووحدتها.

وستبقى الاتجاهات الإسلامية المعاصرة إن هي حافظت على خصائص الأمة، وتمسكت بإيمانها، والتزمت وسطية الإسلام في التيسير والقصد، ويكون من حسناتها، «أنها أيقظت الرأي العام في الأمة الإسلامية، وأوجدت صحوة عارمة، وتنافست في الدعوة إلى الله، وذكّرت بالعلم، ونبهت الناس لخطر

المستعمر»[١] وهي في مجموعها، وتنوع محاورها وأساليبها تشكل تيارًا شعبيًا واجتماعيا يمثل الإسلام إلى حد – ما –، وهدفها أن تتأصل في دولة أو نظام سياسي[٢] بواسطة وسائل وأدوات مشروعة وتفاعل داخلي وخارجي، وتوازن بين المحلية والعالمية، والأصولية، والإبداع والطاعة والحرية، والذات والآخر، مع واقعية الفكرة والحركة، والفهم الصحيح للتعددية وفوائدها والالتزام بالشورى، فتكون الثمار المؤدية – في النهاية – إلى تثبيت هوية إسلامية معاصرة للمسلمين، تكون بُشْرَى خير للبشرية كلها.

إن الوسطية جسور مهمة بين الاتجاهات من زاوية نقدها وتقييمها والتعامل معها، وآلية جميلة في التفريق بين النقد المهم والبناء الذي يجسّد النصيحة الواجبة، ويهدف إلى الارتقاء بالاتجاهات وتصحيح أخطائها، وبين النقد الذي يهدم، ويتجه إلى التجريح والتشويه والإسقاط والإلغاء.

---

(١) الحركات الإسلامية المعاصرة، عائض القرني، ص ١٠ .

(٢) بين فقه التحدي والاستجابة، د. حامد قويسي، مجلة المنار الجديد، عدد ١٥، صيف ٢٠٠١م.

الوسطية والوطن

المسلم في رؤياه المتزنة لمدينته ثم لوطنه، ثم للعالم الإسلامي، ثم للكون، يعيش أجمل معاني التدرج والترابط، من المحور إلى حدود الدائرة الأخيرة، وحالته هذه ليست بعيدة عن حبه لله سبحانه وتعالى ثم لرسوله صلى الله عليه وسلم، ثم لنفسه ووالديه وأبنائه وزوجته وأقاربه وجيرانه، حتى يصل إلى آخر إنسان في الكون، حينما يعامله بالعدل والإحسان، بغض النظر عن لونه وعرقه ولغته ودينه.

فالمسلم يدرك أن للوطن حقوقاً لازمة، تنطلق من تشريعات إسلامية، تلزمه بالمحافظة عليه، ودعم تنميته، وصيانة مكتسباته، وتثبيت أمنه، والتضحية بالنفس والنفيس من أجله.

لماذا هذه المساحات الواسعة للوطن؟

إن حب الوطن غريزة معروفة في الإنسان من أقدم عصوره الاجتماعية[1]، ويلتقي مع الدين والفطرة والعقل، ثم أضيف إليه – مع مرور الزمن – روابط من الحقوق والثقافات والنظم والخصوصيات، والتي لا تتحقق إلا به، كالحقوق الوطنية، والهوية الوطنية، والتنمية الوطنية، والحركات الوطنية، والمقاومة الوطنية، عندئذ تتحول المحبة إلى لازمة من لوازم الحياة في العصر الحديث، ظنّ البعض أنه بديل عن الدين، أو أنه يتناقض معه، أو أنه منافس له، وانطلق آخرون يحذّرون من الوطنية وكأنها من الأوثان المعاصرة، والمصطلحات المستوردة، أو أنها رجس من عمل الشيطان!!

---

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية، عباس النقاد، ص ١٥٠.

للوطن مكانته في الإسلام، يستظل في ظله، ويتبحبح في عدله، وينعم في اتزانه ووسطيته، ويدعو إلى القتال أو السلم من أجله.. قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨].

والوطن أو الديار امتداد لأهله، تكون موئل أمن وإيمان، أو مكان كفر وتكذيب ومقر عقوبة، فالعلاقة عضوية، قال جل وعلا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت : ٣٧].

وقد ساوى القرآن الكريم بين قتل النفس وهجر الديار.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة : ٨٤].

وجعل الخروج من الديار من الأشياء الكبيرة، والصعبة، والشديدة على النفس.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء : ٦٦].

ومن أسباب القتال:

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة : ٢٤٦].

وتلتقي الآيات مع حديث الرسول ﷺ إلى مكة حينما قال لها: **(والله إنك لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت»** رواه أحمد. وما هجرة النبي - عليه الصلاة والسلام - إلا خطوة اضطرارية، ومهمة، في البحث عن وطن دافئ، وديار آمنة، ومكان

مبارك، وأرض محبوبة، ولذا جاء الدعاء للأوطان والديار بالبركة، قال عليه الصلاة والسلام: **(واجعل بالمدينة ضِعْفَي ما جعلت بمكة من البركة)** رواه أحمد، ودعا ﷺ: **(اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد)** وسأل الله أن يبعد حماها، وروى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فرأى درجات المدينة أوضع ناقته، (أي أسرع بها). قال ابن حجر في فتح الباري: «فيه دلالة على مشروعية حب الوطن والحنين إليه، وفي استفسار الرسول ﷺ من ورقة بن نوفل حينما تمنى (ليتني أكون معك إذ يخرجك قومك) **(أو مخرجيّ هم؟!)**. شدة مفارقة الوطن على النفس، وروي عن عمر ابن الخطاب (لولا حب الوطن لخرب البلد السوء). وقال ابن أدهم: «عالجت العبادة فما وجدت شيئا أشد عليّ من نزاع النفس إلى الوطن». وقال: «ما قاسيت فيما تركت شيئا أشد علي من مفارقة الأوطان». ويقول أحد السلف: «من علامة العاقل برُّه بإخوانه، وحنينه إلى أوطانه، ومداراته لأهل زمانه»[1]. وقال آخر: «عمّر الله البلدان بحب الأوطان». وقالت الفرس: «تربة الصبا تغرس في النفس حرمة كما تغرس الولادة في القلب رقة». وتتأكد وتظهر محبة الوطن في حالات كثيرة كالسفر، وحينما يتعرض الوطن للنقد، أو تصيبه كارثة، أو يهجم عليه عدو.

والإسلام يفعّل محبة الأوطان حتى تصل إلى أن «الجهاد لم يشرع إلا دفاعًا عن العقيدة والأوطان، ورد الظلم والطغيان، وتأمينًا للدعوة ونشراً للسلام»[2]. وقد اتفق العلماء على وجوب محاربة العدو إذا دخل الديار،

---

(١) قالوا إنما نحن مصلحون، عبد الرحمن العسكر، ص ٧١ .

(٢) مكانة الوطن في الإسلام، د. أحمد عمر هاشم، مجلة الأزهر، جمادى الآخرة، ١٤٢٤هـ.

فالإسلام ينفرد من بين كل الأديان السماوية والأرضية في ربط المسلم ببلاده، واحترام الوطن، والاستشهاد في سبيل الدفاع عنه وحمايته، بل إن الجهاد فرض عين على كل مسلم إذا اجتيحت دياره، والجزية على غير المسلمين في البلاد الإسلامية من أسبابها حمايتهم من أي اعتداء عليهم وعلى ديارهم.

وفي مضامين (وثيقة المدينة) حقوق واضحة للوطن، وهَمٌّ مشترك للجميع، مسلم وغير مسلم، فالمعاهدة فتح جديد في السياسة الدينية، أقرت حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة الوطن وحرمة النفس وحرمة المال، ولم يحدث مثلها بين أهل الأديان، ولم يَضِقِ الإسلام باليهود بعد أن آل الأمر إليه وصار له الحكم فيهم، ولم ينظر إليهم كعنصر أجنبي دخيل على الديار، ولم تمتد عينه إلى ما لهم من أراضي وأموال استغلوا فيها غفلة العرب في جاهليتهم.

إن الإسلام يسّر سبل التوازن والوسطية بين الفرد والدولة، فلا دولة بدون وطن، ولا وطن بدون شعب، وللأنظمة أماكن، وللشعوب حقوق، وللحاكم واجبات وعليه أخرى، ثم حدد وظائف كل طرف في ظل الوطن، فلا يجوز للفرد أن يخرج على دولته المسلمة بالإفساد وإثارة الفتن، والعبث بالممتلكات العامة، والاحتكار، ولا يجوز للدولة أن تتسلط على المواطن، وتجرده من كرامته وحقوقه، وتحاصره بالظلم، وتصادر آراءه وتوجهاته الفكرية، وتحوله إلى حيوان يأكل ويشرب، من خصائصه الخمول والتواكل والسلبية، والحقيقة الثابتة أنه ليس للمواطن حرية مطلقة وليس للوطن أمن مطلق، والإسلام وازن بين أمن الوطن وحرية المواطن، وحارب الظلم بالعدل من أجل الأمن، وقضى على الاستعباد بالجهاد من أجل الحرية، والعلاقة المتوازنة بين الأمن والحرية المنضبطتين من لوازم وجودهما، فالمواطنة في الإسلام تستلزم:

[١] المساواة بين الناس في الحقوق والقضاء دون النظر إلى اللون أو العرق أو الدين.

[٢] الحرية للمواطنين، حرية تتقدم على الإيمان نفسه ويجعلها الإسلام مدخلا إليه.

[٣] أمن واستقرار المسلم لازمة من لوازم أمن واستقرار الوطن، وأمنهما له الأثر الكبير في قوة الإسلام وتمكنه.

[٤] المواطن المسلم يكون عيناً ساهرة تحفظ أمن الوطن، وتَحُوْل دون فساده وإفساده وتأخره، وتفتيت خيراته وأعضائه.

إن الوشائج التي غرسها الإسلام جعلت في الشعب معنى الأسرة، وأنزلت معنى الدار في الوطن، وأثمرت الحمية والنصرة في دائرة الخواطر المشتركة، «حتى ليشعر الإنسان – كما يرى الرافعي رحمه الله – أن لأرضه أمومة الأم التي ولدته» وشكلت منه عضوًا من أعضاء الأمة الكبيرة، الممتدة إلى زوايا الأرض، إضافة إلى أن الكثير من العبادات والمعاملات لا تقوم إلا بجماعة تنظمها إمارة تقيم في وطن، وللوطن جزء من الولاء، فالولاء ولاءات، وله نصيب من الحب، والحب أنواع وألوان وأقسام، وله حق من التضحية، فالتضحية درجات ومواقف ومراحل، وجميع ما اكتسبه الناس من مال وجاه وتقاليد ولغة ودين وثقافة الكثير منها من وعاء الوطن، والإسلام لا ينظر في سياسته إلى الرابطة الإسلامية وحدها، بل ينظر إلى غيرها، من الروابط العلمية والمهنية والوطنية والأسرية ونحوها؛ لأنه لا يرى الإكراه في الدين، ولذا دخل في حكمه المسلم وغير المسلم، ويجتمع في وطنه الناس على اختلاف أديانهم

وأجناسهم فيكون وطنه وطنًا لهم جميعًا[1]، فللمواطن غير المسلم حق لا يؤثر فيه اختلاف الدين، ولا يكون سببًا في ظلمه أو الاعتداء عليه أو أكل حقه بالباطل، ولا تتم النظرة للأقليات في الوطن على أنهم أرقام صغيرة داخل مجتمع كبير مهيمن، بل هم فئة فاعلة مؤثرة - شئنا أو أبينا - في بنية المجتمع لهم حقوق وعليهم واجبات، والوسطية - وحدها - هي التي تنظر إلى الفرد كشخصية تفعل، ولا تعاقب بذنب غيرها، والفقه الإسلامي فيه الكثير من حقوق الوطن وواجباته وحفظ الممتلكات وتطبيق الشورى، وألاّ تخرج زكاته منه، والتعزير أنواع: «فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام، ومنه ما يكون بالحبس، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن»[1]، واحتضان الوطن للأقارب والأبناء، ووجود القاضي وولي الأمر، وكونه ميدان رزق وعلم، فلا بد أن يكون له أحكام، ويحتاج إلى الأمن، ويتطلع أبناؤه إلى الإصلاح والنصرة والنصيحة، وتطبق فيه الواجبات.

إن افتخار المسلم بوطنه امتداد لافتخاره بإسلامه، واحتفاظه بوطنيته لا يتعارض مع التزامه بدينه، وكل ذلك في توازن باهر، لا يعلو - بطريقة جاهلية - بعضها على بعض، ولا يأخذ بعضها منزلة بعض، وقد افتخر الرسول ﷺ أنه من العرب، وأنه من قريش، وأعلن محبته لمكة، وامتد التفاعل مع الأوطان إلى إفراد كتب الحديث أبواباً تتحدث عن فضائل البلدان: كمكة المكرمة والمدينة

---

(١) الرابطة الوطنية والرابطة الإسلامية، عبد المتعال الصعيدي، مجلة رسالة الإسلام صفر ١٩٧٤م.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية الحسبة) جـ ٢٨، ص ٦٠.

المنورة، واليمن والشام، وجاء علماء مسلمون أفاضل فألفوا المجلدات الكثيرة عن تاريخ المدن: كدمشق وبغداد وحلب والبصرة، ولم يَرَ عالم متمكن أن هذه الجهود محرمة أو مكروهة، أو مِن إضاعة الأوقات، أو من رخاوة الدين، ولو لم يكن الوطن ذا قيمة لما كان السفر عذابًا، أو قطعة من العذاب، وعالجه الإسلام بسرعة العودة إليه، ولو كان سفر طاعة أو عبادة واجبة.

وحقيقة الأمر: إن أعلى وأكمل المشاعر الوطنية تلك التي تنطلق من البعد الديني المتزن، وأنه لم يوجد - ولن يوجد - وطنية حقه إلا بظل الإسلام؛ لأنه باعث قوي في تجذير المحبة للوطن، ولأنه يحميها من الغلو والمجون، ويضعها في مكانها الصحيح، ويستثمر ما فيها من خير، ويجمع جميع المواطنين حول الوطن - وإن لم يكونوا من دين واحد -، ويؤكد على حماية مكتسباته الشرعية والمادية، والدفاع عنه - وإن فقد الإنسان روحه من أجله -، واحترام اتفاقياته مع أوطان أخرى وهيئات ومنظمات، ما دامت تخدم المصلحة العامة، ولا تخرج عن أسس الإسلام، وكل ذلك من تعليمات الدين المؤدية إلى الثواب أو العقاب.

وقد جاء الشعراء ليكملوا الصورة، ويعبِّروا عن الفطرة، ويستعينوا بالدين، فالشوق إلى الوطن، ومحبته، والحزن على أحواله السيئة، وربطه بالأهل والدين... من علامات الإنسان السوي، والشاعر فؤاد بليبل يقول متألماً:

وبنو الشرق أناس نبذوا   خشية الله وحب الوطن!!

وعباس القرشي يجمع بين الأهل والوطن قائلاً:

نفسي فداؤك جهزني إلى وطني   قد طال شوقي إلى أهلي وأوطاني

وشبلي شميل يدعو ويتمنى:

وقل: وطني، وُقِيتَ كل كريهة   وأَكْثِرْ له ما تستطيع من المنى

وأحمد محرم يبتهل:

رب أحببني وأحبب أسرتي   واعفُ عن قومي، وبارك وطني

ومحمود البارودي يشكو:

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني   ذنب أدان به ظلماً وأغترب؟!

وأحمد شوقي يؤكد حقيقة هوى الأوطان:

لا تلوموها أليست حرة؟   وهوى الأوطان للأحرار دَيْنُ؟

والشريف الرضى لا يجد للوطن بديلاً:

فالمرء يَسْرَحُ في الآفاق مضطرباً   ونفسه أبداً تهفو إلى الوطن

والأخرس يعبر عن الفطرة:

إني لأُنزِعُ مشتاقا إلى وطني   والنوق تنزع بي شوقاً إلى البيد

وعبد الحميد الرافعي يهدد ويدعو ويرجو من أجل الوطن:

وطني، إذا ما شان فضلك شائن   فأنا الغيور وعزة الإسلام

وطني العزيز وأنت من أدعو له   عُقْبَى صلاتي دائماً وصيامي

وطني العزيز وفيك كل صَبَابَتي   وتدلّهي وتولهي وهيامي

وطني وأدعو في ظلام الليل أن   لا يبتليك الله بالظُّلاَّمِ

وطني وأرجو أن يدوم لك الهنا   أبداً بظل عدالة الحكام

صور من الامتزاج بين الوطن والمواطن، وخدمات متبادلة بينهما، المواطن يحمي الوطن ويمثله ويبنيه، والوطن يقدم للمواطن الأمان والكرامة والعمل، وأي خلل فيما سبق سوف يكون ضرره عليهما، وانتهى عصر من يستغل

الوطن ويستنزف خيراته ثم يلقيه على المواطنين الضعفاء، أو من يكيد له ويسعى بإلقائه في العربة الأخيرة لهذه الدولة أو تلك الحضارة، متجاهلاً رسالته ومنزلته وهويته.

إن منابع الألفة المؤدية إلى التوازن بين المواطن والوطن تكمن في حضور ومشاركة المواطن تفاصيل برامج الوطن الاقتصادية والسياسية والثقافية، وحقوقه وقيمه، ودوره في إنعاشها، ونصيبه منها، وفي هذه الحالة - فقط - تنمو القواسم المشتركة بينهما، ويتحقق العدل، وتحيى الوسطية وتتأصل المعرفة، ويولِّد الحب والتضحية ولذة الانتماء في نفوس المواطنين.

هذه هي أهم ملامح المواطنة الصحيحة المتكئة على قيم الإسلام، لعلها تأخذ بأيدينا إلى دروب الاتزان والوسطية، البعيدة عمّن يجعل الوطنية أمام الدين، أو يسدد سهام الدين إلى قلب الوطن، والمسلم الواعي لا يضع نفسه أمام شَرَّين، ولا يكون ضيق الأفق فيختار الإفراط أو التفريط، «فالإسلام هو الذي يستدعي ويتطلب وجود الوطن والوطنية؛ لأنه لا تكتمل إقامته دون وطن يتجسد فيه، فليس هو بالدين الذي تكتمل إقامته بالخلاص الفردي»[(١)]، وهذا سر نشأة حركات الإسلام التحريرية الوطنية المعاصرة، ومحاربتها للاستعمار، وارتباطها بالدين، وتفعيلها لعقيدة الجهاد، وهذا ما نلمسه من كتابات النخبة المفكرة من المسلمين، وجمعهم بين الصحوة الإسلامية والوحدة الوطنية، بل إن الأمر أعمق مما سبق، فالإسلام يمنح أبناءه عمقاً حضارياً يحرك فيهم الشوق للمقاومة، والتطلع إلى التحرر بأريحية فاعلة، تكون - دائماً - ثمارها موزعة بين النصر والشهادة.

---

(١) الإسلام والوطنية، محمد عمارة، مجلة القدس، ربيع الأول، ١٤٢٠هـ.

أما من يرون أن "الوطن قبل الدين"، أو أن "الدين لله والوطن للجميع"، أو أن "الوطن يجمع والدين يفرق"، فهؤلاء أخذوا نصف المعلومة، ونقلوا قضايا شعوب بعيدة مع أديانها الناقصة وأسقطوها على الدين الإسلامي، وعلى البلاد الإسلامية ومجتمعاتها، وفي الأسطر السابقة إجابات عليهم، ومن الأفضل دعوتهم إلى إعادة قراءتهم لمكانة الوطن في الإسلام، فهي خطوة مهمة لتصحيح آرائهم، خاصة إذا علموا أن مقارنتهم ظالمة، ووضعهم الإسلام مقابلاً للوطن إساءة لهما جميعًا.

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة لا يعضدان لهم من قريب ولا من بعيد، وما كتبه فقهاء الأمة وعلماؤها ومفكروها عن الوطن والديار والبلدان لا يشد من عضدهم، ولا يلمع حججهم، وما قدمه الإسلام من مكانة للوطن هي أفضل موقع، وأروع مكان، جعله وسطًا بين طرفين: بين من يرى أنه يشبه الوثن، ومن يزعم أنه يقترب من الإله، أو فوق الدين، أو أنه مقدس، بل إن له مكاناً يليق به، ويتناسب مع وظائفه المهمة، ومع مساحات الحب الفطري له.

الوسطية... والمرأة

عصفت بالمسلمين رياح التشويهات والشبهات، ودارت حول دينهم، حتى اضطر بعضهم في بعض الأمكنة إلى الدفاع، وبعض البعض ذهب إلى الاعتذار، ومنهم من تمادى معتذراً حتى لم يبق من دينه شيء، والمثال الحي الصارخ (قضية المرأة) وتحريرها وطلاقها، وحقوقها، ووظيفتها وحجابها، وميراثها وشهاداتها وديتها، ولباسها، ومساواتها، والقوامة وتعدد الزوجات، كل هذه المفاصل والمنعطفات – وغيرها – جاءت من الدوائر التالية:

[١] الخلط بين الإسلام والتقاليد.

[٢] ضعف وعي شرائح كثيرة من المجتمعات الإسلامية بالإسلام، واعتمادها على الطبعات الأخيرة النائية من التفاسير والشروح المتأخرة بسبب غياب أثر العالم والمفكر الإسلامي المعاصر في كثير من الدول الإسلامية.

[٣] محاولات الغرب العملية فرض مفاهيمه ورؤاه، واستعانته بآليات متعددة ومتنوعة ومؤثرة، مع دعمه شريحة مسلمة تأثرت به.

من ذلك خرجت مجموعات قليلة من النساء المسلمات – أو أُخْرِجْنَ – عن وسطية الإسلام واعتداله؛ نتيجة كيد الأعداء وجهل الأهل، وتم تسليط الأضواء عليهن وكأنهن كل المسلمات المعبرات عن الإسلام، واختفت البيئة الحقيقية الرائعة المشرقة الواسعة، التي احتضنت البذور الأولى لحقوق المرأة، وصانت كرامتها، واعترفت بإنسانيتها منذ خمسة عشر قرناً.

وجاء مجموعة أخرى من الغرب والمغرَمِيْنَ به فضخَّموا شيئًا من سلبيات الواقع، وأضافوا إليه أدلة دينية مبتورة، أو تأويلاً ساقطاً، أو رأيًا فقهيًا شاذًا، أو جزئية من موضوع، وأخذوا يدندنون عليها، كـ: نصف شهادتها، وحقها

في الإرث، وموضوع القوامة...، وكأن وسطية الإسلام ظلم واعتداء وتأخر، ويا ليتهم قدموا للأمة و الوطن امرأة عاملة ملتزمة صابرة منتجة مربية! لقد أوجدوا نساء متسوقات من أجل مظاهرهن، وأصبحت الزوجة عبئًا على الزوج! (تريد نقوداً وثياباً وحلياً وتريد أن تكون في مظهرها أحسن من فلانة وفلانة، وتحرض الرجل على أن يوفر المال عن أي طريق كان، حلالاً أو حراماً... عزيزاً أو ذليلاً)[1]، وقلبوا القاعدة، وحولوا مظهرها إلى أساس، فلم يشوه اعتدال واتزان كما شوه ما نالته المرأة في الإسلام من حق وعدل ورفق، ومنزلتها المتميزة أصبحت زلة وانحراف!!

قال البحتري:

إذا محاسني اللاتي أدل بها ... كانت عيوباً فقل لي كيف أعتذر

وقال الخبز أرزي:

قد يَحْسَنُ العذر ممن كان مجترما ... وما اجترمت فصف لي كيف أعتذر؟

ومن المجموعتين تشكلت إغراءات مزيفة يقودها الرجال - غالباً - نحو تحرير المرأة وإدخالها في ميدان المظهرية، واللذة الحسية، والصدام المفتعل بين الحب والفضيلة، وإشغالها بهوامش الحياة، على حساب رسالتها الإنسانية ودورها الحضاري، ولا شك ان انتصار المادية الغربية، وامتلاكها للإعلام والمنظمات الإنسانية، جعلتها تنقل المرأة من المعنى إلى اللفظ، ومن القلب إلى الجسم، ورجحوا أنوثتها على أمومتها، ثم همشوا أنوثتها، حتى استغنوا عن بيت الزوجية ببيوت أخرى.

---

(١) مسلمة الغد، يوسف القرضاوي، ص ١٧.

وقد وضعت الحضارة الغربية – المبنية على الرأسمالية – من نفسها المرجعية الأولى لتحرير المرأة؛ لكي تجعل من جسدها محركاً لاقتصادها أثناء التسويق والشراء، وإنتاج مواد التجميل والملابس، وصناعة أجهزة التخسيس، وأسهم في تفعيل الأهداف قوى علمانية وصهيونية سعت في هدم الدين والتقاليد، وتشويه القوامة، وحوّلت عقل المرأة وكرامتها وروحها وعواطفها وأمومتها ورسالتها إلى هوامش معزولة، وأخرجوها – من حيث لا تشعر – من دائرة الأم والزوجة إلى متاهات الصديقة والعشيقة، وحرموها – بماديتهم – من العدل والاعتدال.

والمساواة بين الرجل والمرأة في بعض زواياها الغربية هى لوحة من لوحات تزييف الطبيعة، والخروج عن الفطرة والاتزان، أما المساواة في الخِلْقَة والتكريم والحرية والجزاء والتقوى، وأمام الله – سبحانه وتعالى –، وفي المحاكم، وفي حقوقها المالية وتملّكها...، فمن مستلزمات حياتها في الإسلام.

أما المساواة المرفوضة فهي: إلغاء خصوصيتها، وتهميش أنوثتها، واسترجال قلبها، ومساواتها مع الرجال في الأعمال والأدوار، وتطابق وظائفهما، وتشبهها بهم في العضلات والملابس.

إن الواقع قتل المساواة بينهما حينما أفاد أنه لا مساواة حقيقية إلا في المقابر، وقتلتها أنوثة المرأة، فالمرأة الحقيقية لا تتنازل عنها، بل تفقد حياتها الحقيقية لو فقدتها، وضربتها الضربة القاضية، أشياء المرأة التي تتميز بها من ملابس وزينة وعواطف، وصوت ورقة وحياء ولين، ثم جاء الطب وقال كلمته الأخيرة، من خلال حقائق علمية.

الإسلام جعل العلاقة بين المرأة والرجل تكاملية، ليس فيها تعارض أو عداء أو خصومة، و«لم يخلق الله المرأة قوة عقل فتكون قوة إيجاب، ولكنه أبدعها قوة عاطفة لتكون قوة سلب، فهي بخصائصها والرجل بخصائصه، والسلب بطبيعته متحجب صابر هادئ منتظر» و«ما تخطئ المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها»[١]، ومن خلال طبيعتها تتجاوز – أحيانا – الرجل في الرأي والتدبير والتربية، ولكن لا تكون ولن تكون مثله، وكذلك الرجل لا يكون ولن يكون مثلها، وليس بهذه المساواة تبنى البيوت وتستقر الأسر، وتتكون المجتمعات والشعوب والأمم.

والقوامة على المرأة في الإسلام لا تحمل معنى الاستعباد والوصاية عليها، ولا تجردها من حقها وحريتها، ولا تحمل دلالة الانتقاص من إنسانتها، وهذه الدعاوى الباطلة لا تتناسب مع منهج الإسلام في تحرير الإنسان، واحترام حقوقه سواء كان رجلاً أو امرأة، طفلاً أو شيخاً، بل إن للحيوانات والجمادات حقوقًا، فلا يستساغ أن تحرم المرأة منها، ولا يُقْبَلُ عقلاً أن من وُضع على عاتقها مهمة تربية الأمة أن يجردها من كرامتها، والمرأة العاقلة ترجو أن توفق بزوج ذي كفاءة وقوة، واثق في نفسه؛ لكي يمنحها الراحة والاستقرار[٢]، والأمن والدفء والحماية، وتمنحه الحب والثقة والصبر، ومنهج الإسلام وموقفه من المرأة: قوي ومتماسك، بحيث لا يجد هواة الفساد فجوة تسقط من خلاله المرأة بين أنيابهم وأظافرهم، ولذا هم في همّ كبير من الدين والأخلاق، لأنهما الرابط بين الحب والفضيلة، وبدونهما تتعانق الغريزة مع الرذيلة.

---

(١) وحي القلم، جـ١، مصطفى الرافعي، ص ٢٢٣.

(٢) رسالة إلى حواء (اعترافات نوال السعداوي)، مجموعة العويد، ص ٨٤.

إن للقوامة على المرأة قواعد وضوابط، وأهدافًا شرعية، ورسول الرحمة - عليه الصلاة والسلام - لم يشغله مرضه الأخير، واقتراب أجله من أن يُذكّر بحقوق النساء، ويوصي بهن خيراً، فالقوامة تكليف للرجل لا تشريف، ولمصلحة الزوجة، وخطوة من خطوات حفظ خصائص المرأة ومشاعرها وإنسانيتها من الكد والتعب وقسوة العمل، وبداية إعطاء الحياة الزوجية والأسرة معنى التنظيم والقيادة والاستقرار وروح الفريق الواحد، ويفقد الرجل القوامة إن رفض الإنفاق عليها أو حمايتها أو حفظ كرامتها أو توفير الحياة المناسبة لها، أو أخل بالعقد بينهما.

والقوامة أمانة ومسئولية، وعلى الرجل المهر والنفقة والعدل، وله الطاعة في المعروف والقيام بشؤونه والقرار في البيت[١]، والعلاقة بين الزوجين تكاملية (وما عرفنا الإسلام إلا عادلاً بينهما، مراعياً طبيعة كل منهما فيما يفرض من حقوق وما يلزم من واجبات)[٢]، فالقوامة وسط بين مزاعم التشريف ومصائب التقليد.

وشهادة المرأة في الإسلام تعادل شهادة الرجل أو تزيد، وما يتناقله بعض الجهلة والمقلدين لا يخدم عمومياتهم، ولا تعدو أن تكون حالة واحدة خلاف مئات الحالات، لها ظروفها، وأوضح العلماء مبرراتها، ولكن - مع الأسف - تم تعميمها والاتكاء عليها، وهي موجهةٌ إلى صاحب الحق وليس إلى القاضي قال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) القوامة على الزوجة، د/ محمد المقرن، مجلة الدعوة ٢٧/١/١٤٢٨هـ.

(٢) رسالة إلى ابنتي، محمد الأبسيهي، ص ٣٩.

وهذه الحالة في موضوع واحد، وهي إشهاد على وصية، وفي الأموال -أيضا-؛ لما فيها من خلافات وأطراف، حَرِصَ الإسلام على توثيقها بالكتابة أو الشهود أو الرهن أو الضمان، كما أن شهادة الرجل الواحد فيها لا تقبل إلا مع رجل آخر، إضافة أن الشهادة ليست امتيازا وحقا، وإنما هي واجب وأمانة، تحتاج إلى التحمل والأداء، والمسألة تدخل في دوائر المصالح والعدل، ولا علاقة لها بجميع أشكال التمييز ضد المرأة، كما أن الجانب العلمي الحديث يشير إلى أن للمرأة مركزا للكلام وآخر للتذكر، وبينهما علاقات تكاملية، زيادة الكلام نقص في التذكر، وقوة التذكر ضعف في الكلام، ويكون (فتذكر إحداهما الأخرى)، هو سرّ وضع شهادتها، وما قبل ذلك وبعده يبقى ما اختاره الإسلام هو الأفضل عند المسلمين.

وشهادة المرأة في مجملها كشهادة الرجل، ويتضح ذلك في آية اللعان، فللرجل أربع شهادات وللمرأة مثلها، كما أن المرأة داخلة في شهادة أمة الإسلام على الأمم الأخرى قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي قضايا معينة لا تقبل شهادة الرجل، بل الشهادة للمرأة فقط، كالشهادة على الرضاعة والولادة، وموضوع البكارة، فالزعم بأن شهادتها نصف شهادة الرجل على الإطلاق لا يتجاوز - في أحسن أحواله - أن يكون في دائرة سوء الفهم، فالمرأة كالرجل في الصدق والأمانة، وكالرجل في الرواية عن الرسول ﷺ، وهي - في هذه الحالة - أهم من كل شهادة وإشهاد.

وما قيل عن شهادة المرأة والرد عليه يقال - أيضا - في الرد على انتقاصها، بسبب أن نصيبها نصف نصيب الرجل في الإرث، وحقيقة الأمر أن المرأة تأخذ

نصف نصيب الرجل من الميراث في أربع حالات يتم تعويضها بالمهر والنفقة، وفي أكثر من ثلاثين حالة تأخذ مثل الرجل أو أكثر، ومن ينظر إلى هيكل توزيع التركة في الإسلام لا يجد أن للذكورة والأنوثة أثر في التوزيع، وذلك من خلال الخصائص التالية:

(أ) سعي الإسلام في توزيع الميراث وليس حصره في وارث واحد، يؤدي في النهاية إلى فجوات في طبقات المجتمع

(ب) إفادة أكبر عدد متجانس من المقربين للميت.

(جـ) توزيع التركة ينطلق من قرب الوارث للميت، وحاجته، وإقباله على الحياة، مع مراعاة الحقوق المالية الأخرى مثل (المهر) و(الإعالة)، ويظهر ذلك من نصيب الابنة الوحيدة (النصف) من أمها ونصيب الأب (الربع) وبنت المتوفى تأخذ أكثر من أمه وأبيه.

ويأتي بعد ذلك قضايا الحجاب ولباسها وتعدد الزوجات والطلاق وعمل المرأة، والاختلاط والمعاشرة والنفقة، وديتها وتحريرها وغير ذلك، وكلها لوحات تحريضية باطلة، وتهم زائفة تصب على الإسلام، ولكنها تتبخر تحت نار الأدلة الشرعية والدراسات الإنسانية والأرقام العلمية[١]، وهي بعد التأمل تصب في مصلحة المرأة، وتتناسب مع احتياجاتها الظاهرة والباطنة، «فإياك أيها الرجل أن تأخذ مهمة الأنثى، وإياك أيتها الأنثى أن تأخذي مهمة الرجل، وبينكما قدر مشترك، هذا القدر المشترك أن كلاكما إنسان مفكر، يعنى له عقل يخاير بين البديلات»[٢]، ومؤلم ثم مؤلم أن تجد امرأة تَخَلَّت عن أنوثتها وكأنها تريد أن تكون رجلاً ولكن بدون رجولة.

---

(١) موسوعة حقوق الإنسان، أ.د/ عدنان الوزان، جـ ٥، ص ٢٠٩.

(٢) شبهات وأباطيل خصوم الإسلام، محمد متولى الشعراوي، ص ٥٩.

مشاكل المرأة ومعاناتها تستمر إذا كانت تتراوح بين تقاليد بالية أو أنماط خارجية، والحل يكمن في وسطية الإسلام، وما فيه من خير للمرأة، فالمرأة «في الإسلام نمط آخر لا يقاس لا بما قبل الإسلام ولا بما بعده، وسواء رضي الناس في عصرنا أو العصور القادمة على النمط أو لم يرضوا فإنه نمط قائم وثابت ومستمر، لا يغيره أن يخالفه الناس، ولا يعيبه أن يعاكس آراءهم وأفكارهم وثقافتهم ونظرتهم إلى الأمور»[1]، ما دام أنه يتطابق مع خصائص المرأة وإمكانياتها ورسالتها، والجريمة الكبرى أن نُجَنِّسَ رذائل أوروبا في مجتمعاتنا الإسلامية، وأكبر من ذلك أن يعقب المخلوق على الخالق وهو لا يملك علمًا ولا هدى، والواقع يؤكد عمق واتساع الجروح، فالتشخيص الغربي لأمراض المرأة المسلمة خاطئ، وأدويته تؤدي إلى الميوعة الأخلاقية، وضعف الإنجاب، وتشتت الأسرة، ثم انحلال الأمة.

المرأة في الإسلام أمٌّ وزوجة وأخت وابنة، لها دورها الجليّ في رسالة الإسلام الإنسانية، فأول من أسلم امرأة، وأول شهيدة في الإسلام امرأة، وهاجرت وعالجت ودعت وباعت واشترت، والإسلام دين الخير والعدل والوسطية، فلا يمكن أن تُحرم من خصائص دينها وهي تعيش في ظله، ولا يتحقق انتقاصها وهي تؤمن به، وتحمل عبء الدفاع عنه وتبليغه، وكل مسلمة غربية جديدة هي طعون عملية على دَعاوى التحرر الكاذبة، وشهادة ناطقة تؤكد قوة الإسلام في دفاعه عن المرأة واحترامه لها، وما أكثر الشهادات!!

المرأة المسلمة إشراقه اليوم، وشمس الغد، والوجه الآخر للنهضة القادمة، قوتها في إيمانها، وجمالها في أخلاقها، وخطاها على الصراط المستقيم، ولذا ستكون امرأة الغد.

---

(١) المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير، د/ عبد الكبير المدغري، ص ١٥ .

النساء المسلمات شقائق الرجال، والعلاقة بينهما تكاملية، وجميعهم في ميدان واحد، شركاء في بناء الأسرة والمجتمع والأمة، وأي انحراف في التعامل مع المرأة، وسلب حقوقها، والإساءة إليها فهو اعتداء على كل المسلمين، وسببه الأول: الجهل بالإسلام، واتباع التقاليد، واستيراد الأنماط من الخارج، وعلى المجتمعات الإسلامية بقيادة العلماء والمفكرين أن يُفعّلوا دور المرأة وإن يدافعوا عنها وإن يهيئوها ويهيئوا الدروب لها، لكي تقوم بدورها، وتسهم في التنمية، والعطاء والعلم والتربية، وألاّ يدفعنا الغرب - بمناهجه ووسائله - إلى استرجال المرأة واستجوافها، أو تجرنا التقاليد - دون أن نشعر - إلى تهميشها وظلمها، وتحديد إقامتها.

والحقيقة التي تتأكد في كل لحظة: أن المرأة لن تجد حريتها الحقيقية الكاملة إلا في ظل الإسلام؛ لأنه يرعاها قبل مولدها، و في حضن أمها، وبيت والدها، وأمام زوجها، وبين أسرتها، وعند أبنائها، وفي آخر عمرها، وبعد مماتها، ويربط كل ما سبق بالثواب والعقاب.

إن وسطية الإسلام كفيلة بأن تخرج طاقات المرأة المعطلة وتضعها في الطريق الصحيح، وتجعلها قوة ليس للإسلام فقط بل للإنسانية، من خلال الإسلام الذي حدد حقوقها بعد ما استعرض مسيرتها، فهي - والرجل - من نفس واحدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

والذكر والأنثى بعضهم من بعض.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾

[آل عمران: ١٩٥].

والمرأة من نفس الرجل...

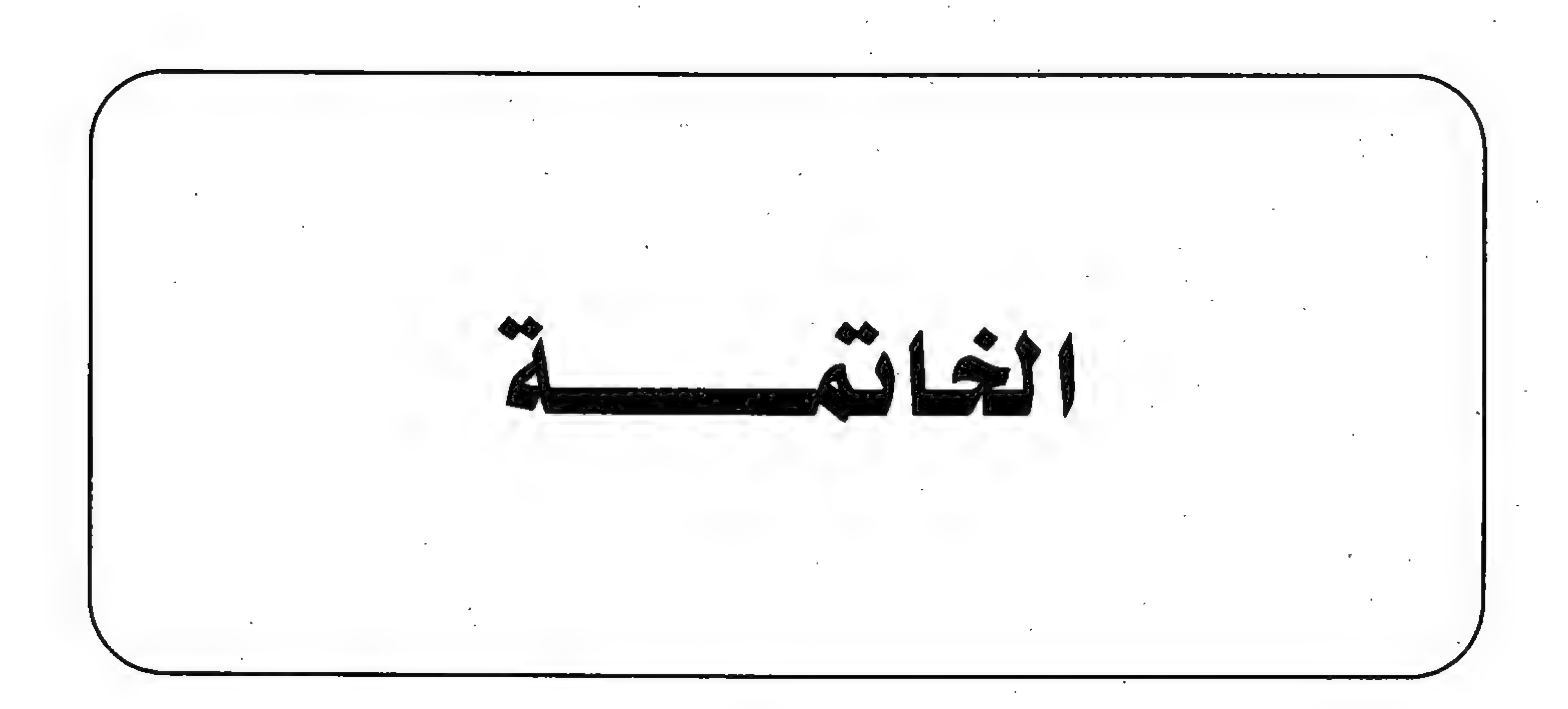
﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [الروم : ٢١].

وهما بذور الشعوب والقبائل ، والناس من المرأة والرجل ، وفي تنافس مثمر من أجل التقوى....

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣].

ومن مستلزمات «تقواها» تمتعها بالحقوق الأساسية ، كالحق في الحياة والعمل والعلم والعبادة والحرية والرأي والتصرف ، وثمار حقوقها تؤتي أكلها كل حين على يد مجتمع إسلامي متزن عادل.

إنــما المــرأة والمــرْ ءُ ســـواء فـــي الجَــدَاره
علمــوا المــرأة فــالمر أة عـــنوان الحَـــضَارة



الخاتمة

«ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له فالغالي مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد»

ابن القيم

الخاتمة

وأخيراً...

وصلتَ أخي القارئ إلى نهاية الجولة، ولعلك لمست الحقائق الثلاث التالية: -

- أهمية الوسطية، ومنزلتها في الإسلام، وفي ثقافة المسلمين.

- الوسطية أنماط متعددة، يؤثِّر فيها الزمان والمكان ومستوى الإنسان، أما خطوطها الأساسية فواضحة وثابتة.

- تتراوح - الآن - الوسطية بين أطراف داخلية وقوى خارجية، والبقاء لوسطية الإسلام.

ومن المسَلَّمات - مع الأسف - أن مفاهيم ومصطلحات بدأت تأخذ مساحات - ما - في المجتمعات الإسلامية، يليها أخرى، وكأنها أمواج بعدها أمواج، والمسلمون متلونون بألوان الإسلام، ويعتري أطرافهم الضمور أو الموت أو السرقة «فإنما يأكل الذئب القاصية» رواه أبو داود.

وبعض المفاهيم والمصطلحات السيئة تنمو نتيجة غفوة أو غفلة، فيقوم فرد بخرق السفينة بنقرة قلم أو همسة لسان، بدواعي الحرية أو الملكية، فإن أخذ المسلمون على يده نجا ونجوا، وإن تركوه غرقوا جميعاً.

والمصطلحات والمفاهيم تصاغ بحروف جميلة على يد أصحابها، وأحياناً تكون مثقلة بالمعاني الشريرة، حيث يقوم الخصوم وأصحاب الأهواء بتعليقها على خصومهم، وأصدقها العادلة المعتدلة، المطابقة للواقع، أو القريبة منه، المولودة من مرجعية الأمة، ومثلها وقيمها، كالإصلاح والقسط والوسطية

والخيرية، وتكون - في مجملها - مُلْكًا للأمة دون استيلاء مذهب أو حزب أو تيار عليها، والزمن كفيل بتمحيصها، وإقرارها، وكشف المتزينين - زوراً - بها أو المستوردين لها.

جاء مصطلح (الوسطية) المعاصر من تفاعل الأحداث، وتشابك الأزمات، وتماس الدوائر بين المجموعات، وضغط الخارج، وقلق الداخل، وتداعيات ١١ سبتمبر، ووجدت فيه القوى الثلاث - الأمة، السلطة، الأعداء - بلسمٍ لمعاناتها، وأمل للجميع، قبل الالتقاء حول المفهوم.

وانتشر المصطلح، وتم تداوله، وأصبح له مراكز ومؤتمرات في الكويت ومصر والأردن وسوريا ولندن وواشنطن، وعناوين وشعارات، منها (الوسطية نور) و(الوسطية آلية إصلاح الأمة) و(الوسطية مشروع فكري حضاري) و(الإسلام بين الوسطية والتشدد) و(الوسطية تكليف وتشريف) و(الوسطية ارتباط بالأصل واتصال بالعصر)، وفيها الصادق والكاذب والعابث والجاد والغث والسمين.

وحقيقة الأمر أنه لن يبقى إلا الحق ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧].

ومن الحقائق الثابتة أنه لا تكامل بين المسلمين بدون الوسطية، ولا تعاون وتنافس إيجابي بين الأمم والشعوب بدونها، ولن نجني السعادة الكاملة من فضائل وخصائص الإسلام إلا بالاعتدال، ويقرب الصورة إلى الأذهان حياة ووظائف جسم الإنسان، فإنه وليد منظومة تكاملية متزنة بين الطعام والأنسجة والغدد والامتصاصات والإفرازات، والأمراض تأتي نتيجة خلل في تلك

المنظومات أو في بعضها، وهو ما يشبه الغلو والمجون، وكذلك غياب الاتزان من سلوكيات المجتمع المسلم مؤشر على تحوله إلى شللية من المفسدين أو الجاهلين أو المترفين أو الطغاة، وبداية لمرض التقاعس، وانتشار الفتن، ونمو الخوف في الداخل، وفتح أبواب التدخل الخارجي، إن الأمة الإسلامية بحاجة ماسّة إلى الوسطية في هذا الزمن، أكثر من أي زمن آخر، حيث تُتَّهَم بالإرهاب والتطرف والأصولية، وحيث تحيط بها العولمة لتفتت هويتها، وحيث تقع أظافر وأنياب دول كبرى على ثرواتها، وحيث يجتاح دينها تيارات وحكام من أجل توظيفه في دروب مصالحهم، بالترويض أو بإعادة صياغته أو بانتقاء ما يناسبهم منه.

(أ) النتائج:

وسطية الإسلام قادمة وستبقى، يدفعها إلى ميدان العمل تجارب كل التوجهات الإسلامية، وإيمان كل القائمين عليها بأهمية الوحدة، وميزة التكتل، وأثر الحوار الصادق والمتواصل على الجميع، ومن الجميع، وثمار المراجعات، وانتشار وسائل الإعلام الإسلامية، وكثرة البحوث والمؤتمرات والندوات، والتقاء علماء الأمة ومفكريها، وتعاونهم في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، وممارسة النقد الذاتي، وتوجههم نحو أهداف مشتركة، ودور الوعي والتكاتف في هذا العصر.

وسطية الإسلام قادمة وستبقى، يدفعها إلى ميدان العمل، إفلاس الحركات الهدامة وانكشافها، وسقوط النظريات البشرية وانتهاء صلاحيتها، وبشاعة العقل البعيد عن القلب، وفشل العلم المجرد من الإنسانية.

وسطية الإسلام قادمة وستبقى، يدفعها إلى ميدان العمل كمال الإسلام وتمامه وشموليته، وإحاطته باحتياجات الإنسان، ومراعاته للفطرة والغرائز،

وأنظمته في حماية التوحيد، وصيانته لحقوق الإنسان والحيوان والجماد، ونظراته اليقينية الواضحة للحياة وما بعدها.

وسطية الإسلام قادمة وستبقى، بعد أن تعرَّت المذاهب المعاصرة، والطائفية المتطرفة، والانتماء الأعمى، وانتهاء عصر تقديس الأشخاص واحتكار الصواب.

وسطية الإسلامية قادمة وستبقى، يدفعها إلى ميدان العمل أنها الحقيقة الوحيدة في الكون، والبدائل ثبت فشلها، أو هي أصغر شأناً من أن تدخل في منافسة مع وسطية الإسلام، أو في مقارنة مع خصائصه.

وسطية الإسلام قادمة، لأنها وسطية تقبل المتغيرات، ولا تساوم على الثوابت، مبثوثة في العقائد والعبادات والمعاملات، تؤمن بشمولية الإسلام دون انغلاق، وتلتقي مع الناس جميعاً حول العدل والحقوق والقيم السامية، وترسخ في المسلمين وحدة الجنس البشري، ووسائل الاتصال بينهم، وحسن العشرة.

الوسطية الحقة تؤدي إلى فقه التوازنات، وترتيب الأولويات، وإدراك الواقع، ولا تحصر نفسها في العقائد، أو في المعاملات فقط، ولا تقيد الجهاد في القتال، فالوسطية مطلوبة من جميع الجوارح، وعلى كل الدروب ومع جميع القضايا، وأفضل البدايات حسن التعامل مع الذات، فالمَخْرَجُ من (ظلم النفس) والطريق إلى (ضبط النفس) يكمن في الاعتدال، وظلمها يعني مجاوزة الوسط إما إلى الغلو أو المجون، وضبطها يؤدي إلى استثمار إمكانيات الإنسان الجسيمة والعقلية والقلبية، انطلاقاً من التوازن في التعامل معها، فلا يَجْلِدُها،

ولا يتوجها بالغرور، بل يزكيها، ولكن بمقاييس الإسلام، والنصوص الدينية كثيرة في وصفها وتحديد وظيفتها وتحذيرها والتحذير منها، وذكر مزالقها وإيضاح سبل نجاحها وثباتها.

(ب) الاقتراحات:

إن الضعفاء في الدين والعلم والثقة والإمكانية والقدرة هم بيئة هشة لجرثومة الغلو والمجون، وهم منطلق الإفراط والتفريط.

والنظرة الواسعة لأحوال المسلمين المعاصرة تستدعي الحكمة والصبر والفهم، وبدونها يتجه بعض المسلمين إلى التنازل عن دينهم أو العزلة عن العالم، وليس في هذا أو ذلك شرع الله ونصره وسعادة الدارين، بل إن الأمر الصحيح بينهما، وإن كانت الوسطية الحقة تعاني من:

- النمط الغربي المفروض.
- التوجهات المغالية لبعض المسلمين.
- الأنظمة الشمولية لكثير من الدول الإسلامية.

فمعاناتها من علامات مولدها وقوتها وإشراقة شمسها، فالظلمة الشديدة تسبق الفجر بلحظات، وعلى صفوة الأمة، والنخب المثقفة أن تهيئ أمر استقبالها من خلال النقاط التالية:

[١] الالتقاء حول الوسطية في حدها الأدنى، أصلها المهم وأساسها الأول، ويشمل شهادة التوحيد وأركان الإسلام والثابت من الدين، والمجمع عليه، وتجريد الإسلام من التقاليد، والابتعاد عن تكبير الجزئيات، والتأويلات الخاطئة.

[٢] إظهار مساحات التسامح في الإسلام، وفقه التعارف، وإيجابيات الحوار، والإيمان العملي في حق الناس بـ «الاختلاف» والاختيار والتدين.

[٣] مصطلح الوسطية يحتاج إلى المزيد من النحت والتعميم، من أجل تفعيله من خلال التربية والمسجد والإعلام.

[٤] الوسطية لا تتجسد في اتجاه – ما – أو طائفة – ما – أو شخص – ما – بل هي من الإسلام الذي يجب أن يرجع إليه كل أولئك، إسلام الماضي والحاضر والمستقبل، والمؤمن يبتهل ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يقر عينيه بالأزواج والذرية والمال الحلال، وفي الوقت نفسه يتطلع إلى نعمة إمامته للمتقين، ولا تناقض بينهما.

[٥] لا وسطية في ظل الكبت، وتقييد الحريات، ومصادرة الأفكار، ولا وسطية مع تقديس الأشخاص، أو تحجيم منزلتهم أو تأكيد حصانتهم من النقد والأخطاء، أو تمجيد الاتجاهات وتنزيهها، وربطها المباشر بالله سبحانه وتعالى أو بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو بالإسلام إلاّ بما تملكه من روابط حقيقة متصلة السند واضحة الدلالة، معها من القرآن الكريم والسنة المطهرة برهان.

[٦] على دعاة الوسطية الالتزام بها، وقبول كل من وضع نفسه على ثغر من ثغور الإسلام، مستفيداً من قدراته الذاتية وإمكانياته المادية وتخصصه واهتمامته، دون إلزامه بما لا طاقة له به، أو بما تريده هذه الجماعة أو تلك، فلا وسطية لمن يزعم أن الناس أمة واحدة، أو بالإمكان أن تكون، ولا وسطية لمن اعتقد أن كل المسلمين يمكن وضعهم في مذهب واحد أو اتجاه واحد، ولا وسطية بدون شفافية وتعددية وتنوع وانفتاح، ولا وسطية بسيف السلطة، أو من تربة الأهواء، أو على مساوئ التقاليد، أو في المعلبات المستوردة.

[٧] إن وسطية الإسلام يجب أن يراها غير المسلمين كخطوة من خطوات

الدعوة والدفاع، ولن يتحقق ذلك إلا بتطبيقها على أرض الواقع من قبل المجتمعات الإسلامية، فالمثال، أو النموذج يقع في أعلى سلم المؤثرات.

[٨] إن نعوتًا تطلق على المسلمين، وتصل إلى الإسلام، وتصفهم بالتطرف والعنف والإرهاب، الراديكالية والفاشية، تُحَتِّمُ على المسلم الواعي، والمؤسسات الإسلامية الفاعلة أن تفتح أبواب النقاش، وأن تقدم الصورة الصحيحة مهما كانت ثقتنا بأنفسنا وديننا، ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة حينما قال: «إنها صفية» رواه البخاري ومسلم.

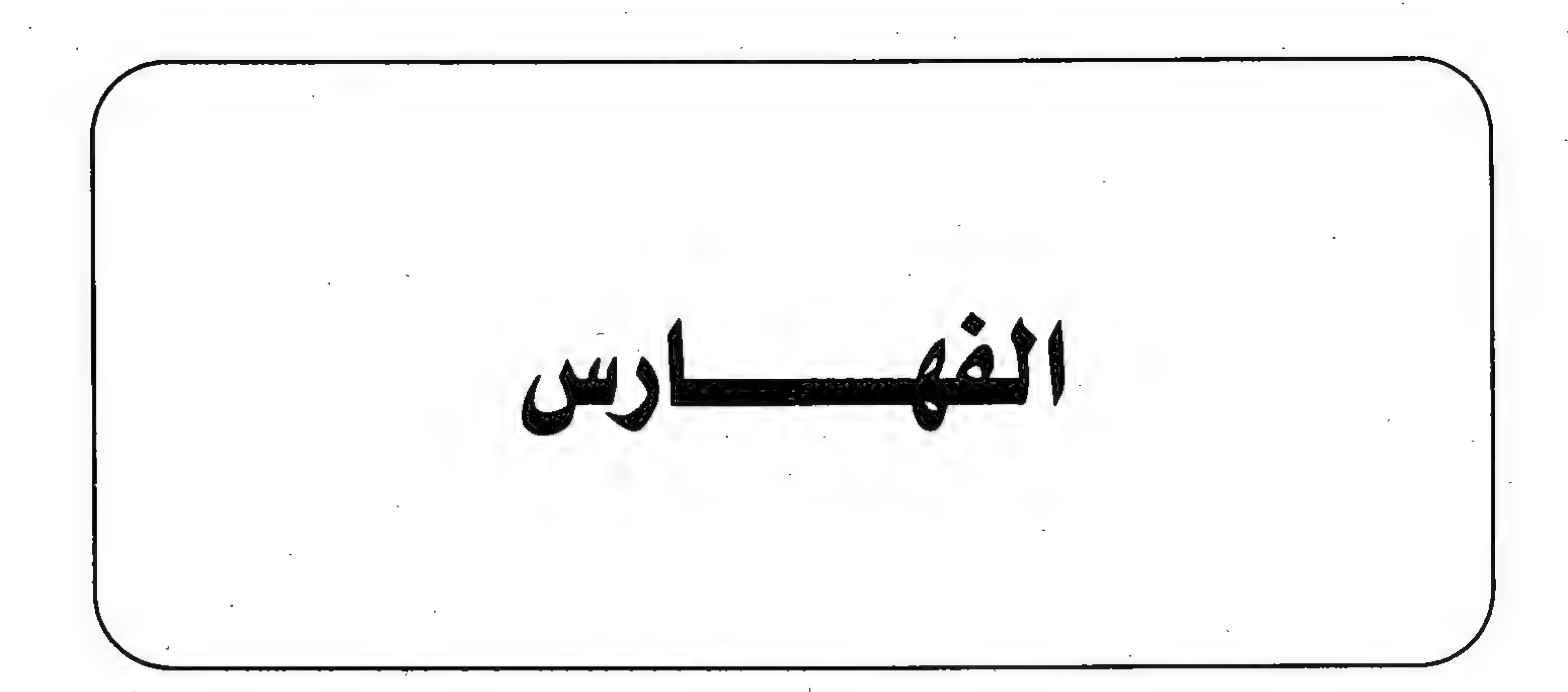
[٩] إن محبة الوسطية والرغبة بها، وتمجيدها والإيمان بوجوبها لا تُؤْتي أُكُلَهَا إن لم يعانقها تفاعل وعمل وسلوك على أرض الواقع.

[١٠] الإفراط والتفريط مقرات للتنازع والاختلاف، ومن دواعي العداوة والبغضاء، المؤدي إلى التشتت والفشل، المنتج للضعف والذل، الجالب للندم والحسرة، وهو ما نراه في بعض الدول الإسلامية وشعوبها.

[١١] لا يحل مشاكل المسلمين فيما بينهم، ومع غيرهم، ولا يعالج أمراض الشطط والجفاء والتجاوز والنقصان، ولا يُلَطِّفُ الأجواء المشحونة هنا وهناك كوسطية الإسلام - إذا التزم بها المسلمون -؛ لأنها لا تعني - كما يراها البعض - المداراة والهروب من المسؤولية، ومراعاة الظروف الدولية، وإرضاء العدو والمعارض، والتبعية بدون وعي، إنها - وبكل إصرار - إنصاف وقوة وعزة، وشدة على الطغاة والظلمة، ورحمة بالمؤمنين والضعفاء والفقراء، ومنهج رباني لا مثيل له على الأرض، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

إن توجيهات القرآن الكريم والهَدْي النبوي في مجملها وتفاصيلها تدعو - بصراحة - إلى التشبث بالاعتدال، ثم تأتي القواعد الفقهية المشهورة (المشقة تجلب التيسير) و(اليقين لا يزول بالشك) و(الأمور بمقاصدها) و(الضرر يزال) و(العادة محكمة) و(لا ضرر ولا ضرار) و(إذا ضاق الأمر اتسع) و(الضرورات تبيح المحظورات) و(الضرورة تقدر بقدرها) لتصب في مصلحة الوسطية، مؤكدة على وجودها في الأحكام الإسلامية، وسلوك المسلم، منطلقة من التوازن الشامل لتعانق مصطلحات (الإباحة) و(الاستطاعة) و(الاضطرار) و(الحرج)، من أجل استقرار الإنسان ومراعاة ما يعتريه من نسيان وإكراه ومرض وخطأ، والوصول به إلى الوسطية، وسطية الإسلام المؤدية إلى وسطية المسلم، وثمارها السعادة في الدارين.


الفهارس

المصادر والمراجع

(أ) المصادر:

[١] القرآن الكريم.

[٢] السنة النبوية.

(ب) المراجع:

أولاً: الكتب:

[١] أثر العرب في الحضارة الأوروبية، عباس محمود العقاد، ط/ الثانية، الناشر/ دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.

[٢] الاجتهاد في طلب الجهاد، عماد الدين بن كثير الدمشقي، تحقيق/ عبد الله عسيلان، الناشر / دار اللواء، ط/ الثانية ١٤٠٥هـ.

[٣] أدب الاختلاف في الإسلام، د/ طه العلواني، ط/ الأولى، الناشر/ رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، ١٤٠٥هـ.

[٤] الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، ط/ الثانية، الناشر / دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٤م.

[٥] الإسلام وقضايا العصر، د/ محمد موسى نصر.

[٦] الأمة الوسط، د/ عائض القرني، ط/ الأولى، الناشر / مؤسسة الريان، بيروت ١٤٢٥هـ.

[٧] الأمة الوسط، محمود شاكر، ط/ الأولى، الناشر/ دار الهدى – الرياض.

[٨] الترجمان والدليل لآيات التنزيل، المختار الشنقيطي. الموزع/دار الروضة الصغير الرياض.

[٩] التسامح في الإسلام، أ.د/ زيد عبد الكريم الزيد، الناشر/جائزة نايف بن عبد العزيز العالمية .. المدينة المنورة.
[١٠] جامع بيان العلم وفضله.
[١١] الجهاد في الإسلام بين الدفاع والطلب، صالح اللحيدان، ط/ الخامسة، الناشر/ دار الصميعي ١٤١٨هـ.
[١٢] حجة الله البالغة، شاه ولي الله الدهلوي، تحقيق / السيد سابق، الناشر / المكتبة الأثرية، باكستان.
[١٣] حديث افتراق الأمة إلى نيف وسبعين فرقة، للإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق / سعد السعدان، ط/ الأولى، الناشر / دار العاصمة، الرياض ١٤١٥هـ.
[١٤] الحركات الإسلامية المعاصرة، د/ عائض القرني، ط/الأولى، الناشر / دار الوطن، الرياض ١٤٠٩هـ.
[١٥] حركة الإسلام السياسي والمستقبل، د/ رضوان السيد، ط / الأولى، الناشر / مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ١٩٩٧م.
[١٦] الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية (ندوة) ط/ الأولى، تحرير وتقديم د/ عبد الله النفيسي، الناشر / مكتبة مدبولي ١٤١٠هـ.
[١٧] الحوار آدابه وتطبيقاته، خالد المغامسي.
[١٨] الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين، د/ سعود صيني، ط / الأولى، الناشر / مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني ١٤٢٦هـ.
[١٩] خصوصية الحضارة الإسلامية (الوسطية)، د/ عصام البشير.

[٢٠] الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، (نخبة من الباحثين) إعداد/ مركز البحوث والدراسات، قطر ١٤٢١هـ.

[٢١] رسائل إلى ابنتي، محمد الإبشيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ.

[٢٢] رسائل إلى حواء (اعترافات نوال السعداوي)، محمد العويد، مؤسسة الريان، بيروت ١٤١٣هـ.

[٢٣] شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها، محمد متولى الشعراوي، الناشر/ مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٣م.

[٢٤] طريق الهجرتين، شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، الناشر / دار الوطن للنشر والإعلام.

[٢٥] الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني، د/ عبد الرحمن إسبينداري، الطبعة الأولى، الناشر / الجامعة الإسلامية العالمية (ماليزيا) ٢٠٠٥م.

[٢٦] العرب يبدعون مستقبلهم، د/ حسن صعب، ط/ الأولى، الناشر / دار العلم للملايين ١٩٩٠م.

[٢٧] العلمانيون والإسلام، محمد قطب، الطبعة الأولى، الناشر / دار الوطن، الرياض ١٤١٤هـ.

[٢٨] عقيدة الإسلام أيديولوجيا المستقبل، مهدي بن عبود، ط/ الأولى، الناشر/ المختار الإسلامي، القاهرة ١٣٩٤هـ.

[٢٩] فتح القدير، محمد الشوكاني، ط/ الثانية، مراجعة / يوسف الغوش، الناشر / دار المعرفة ١٤٢٥هـ.

[٣٠] فقه الخلاف، مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي، جمال سلطان، الطبعة الأولى، الناشر / مركز الدراسات الإسلامية – بريطانيا.

[٣١] قالوا إنما نحن مصلحون، عبد الرحمن العسكر، ط/ الأولى، ١٤٢٥هـ، الرياض.

[٣٢] قالوا عن الإسلام، د/ عماد الدين خليل، ط/ الأولى، الناشر / الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ١٤١٢هـ.

[٣٣] مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب/ عبد الرحمن قاسم، الناشر مجمع الملك فهد لطابعة القرآن الكريم، المدية المنورة ١٤١٦هـ.

[٣٤] المحجة في سير الدلجة، ابن رجب.

[٣٥] المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير، د/ عبد الكبير العلوي المدغري، الناشر / مطبعة فضالة، ط/ الأولى ١٤٢٠هـ، المغرب.

[٣٦] مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، لأبي زكريا الدمياطي، ط/ الأولى، الناشر / دار البشائر، بيروت ١٤١٠هـ.

[٣٧] المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الأصفاني.

[٣٨] موسوعة حقوق الإنسان، أ.د/ عدنان محمد الوزان، الناشر / مؤسسة الرسالة ١٤٢٥هـ، بيروت.

[٣٩] وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، ط/ الثامنة، الناشر / دار الكتب العربي.

[٤٠] الوسطية والاعتدال وأثرهما على حياة المسلمين، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الناشر / وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض.

[٤١] الوسطية أبعاد في التراث والمعاصرة، منتدى الفكر العربي، ط/ الأولى ١٤٢٨هـ، عمان – الأردن.

[٤٢] الوسطية بين التنظير والتطبيق، منتدى الفكر العربية، سلسلة الحوارات العربية، ط/ الأولى ١٤٢٦هـ، الأردن.

[٤٣] الوسطية في القرآن الكريم، د/ علي الصلابي، ط/ الأولى، الناشر / دار المعرفة ١٤٢٦هـ، بيروت.

ثانياً: المجلات:

[١] مجلة (الاجتهاد) عدد ٢٥، مجلة متخصصة بقضايا الدين والمجتمع والتجديد، تصدر عن دار الاجتهاد بيروت.

[٢] مجلة (الأزهر) ربيع الأول ١٤٢٣هـ، جمادى الأخرى ١٤٢٤هـ، يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، مصر.

[٣] مجلة (إسلامية المعرفة) عدد ١٧، مجلة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في (أمريكا).

[٤] مجلة (البحوث الإسلامية) عدد ٩، مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة للإفتاء، الرياض.

[٥] مجلة (الحكمة) عدد ٢١، مجلة بحثية شرعية ثقافية، تصدر في بريطانيا.

[٦] مجلة (الدعوة) ٢٧/٠١/١٤٢٨هـ، تصدر عن مؤسسة الدعوة، الرياض.

[٧] مجلة (رسالة الإسلام) صفر ١٣٧٤هـ، تصدر عن دار التقريب بين المذاهب المعاصرة، القاهرة.

[٨] مجلة (الفرقان) عدد ٣٥، إسلامية ثقافية، تصدر في المغرب (الدار البيضاء).

[٩] مجلة (القدس) ربيع الأول ١٤٢٠هـ، تصدر عن مركز الإعلام العربي، مصر (الجيزة).

[١٠] مجلة (المسلم المعاصر) (العدد الأول)، فصلية فكرية، تصدر في بيروت.

[١١] مجلة (المنار الجديد) عدد ١٥، تقدم مقالات وأبحاثًا في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران، الناشر/ دار المنار الجديد، القاهرة.

[١٢] مجموعة من الصحف ورد ذكرها في الكتاب وهوامشه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

المرتكزات والمنطلقات ١٣٢-٤٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة